الثُّلثُ الأخير

فِقهُ آخِرِ العُمُرِ

تأليفُ
عبد اللطيف بن هاجس الغامدي



الطبعة الثانية

الثُّلُثُ الأخيرُ

فِقْهُ آخِرِ العُمُرِ



ح دار الحضارة للنشر والتوزيع، 1445هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الغامدي، عبد اللطيف بن هاجس

الثلث الأخير (فقه آخر العمر)/ عبد اللطيف بن هاجس الغامدي - ط2

الرياض - 1445هـ

144ص؛ 20x14سم

ردمك: 978-603-8404-78-2

رقم الإيداع 1445/8074

رقم الإيداع: 1445/8074

ردمك: 978-603-8404-78-2

الطبعـة الثانيـة

1445هـ - 2024م



المملكة العربية السعودية - الرياض

daralhadarah@hotmail.com

الرقم الموحد: 920000908 الفاكس: 2702719 - 011

0551523173 @daralhadarah

زوروا متجر الحضارة

daralhadarah.net



تأليف

عبد اللطيف بن هاجس الغامدي




بسم الله الرحمن الرحيم

مختصرات



- **وزبدة الـكلام؛**: من كانت له بداية محرقـة كانت له نهاية مشرقة، فالعِبرةُ بكمال النِّهاياتِ، لا بنَقص البدايات..
- **ونهاية المطاف**: عش للدنيا على قـدر مرورك بها، وعش للآخرة على قدر خلودك فيها!
- **ونتاج المقال**: القناعة كنز الفقراء، والجشع فقر الأغنياء..
- **وعمدة الكلام**: دوام الحـال من المحال، فعش حياتك في كلِّ مرحلة بأطيب حال..
- **ومقتضب التحرير**: مصيبة الحياة الدُّنيا أنَّك لا تعرف قيمتها إلا إذا انتهت مدَّة بقائك فيها!
- **وثمرة الحديـث**: آمن ما تكون السَّـفينة عندما تكون على الشَّاطئ، لكنها لم تُصنع لهذا!
- **وصفـوة الخطاب**: غَسْـلُ قلبِك أولى من غسـل قدمك، ونظافة صدرك أهمُّ من نضارة ثوبك!

- وجوهر الكلام: خليلك الصَّادق لا تعرفه إلا في المضايق!
- ولُبابُ الحوار: اتركْ ما يذكِّر بـك بعد رحيلك، حتى يقال عنك: مرَّ من هاهنا، وهذا الأثر!
- ونُخبة العلم: من الفأل السَّيءِ أن يظلَّ الطَّبع السَّيءُ مع صاحبه حتى يدخل به إلى قبره!
- وحكمة النِّقاش: قشور الفاكهة لا تُغني عن لبِّها، وسعادتك من الدَّاخل، فلا تبحث عنها في الخارج!
- ومختصر الخبر: مُلاعب الأفاعي لا يسلم يومًا من لدغها!
- وموجز النبأ: لا تمت قبل الموت!
- وخلاصة البحث: من جاء إلى الدنيا ثم لم يزد فيها فهو زائد عليها.
- وصميم القول: أنت تخوض في بحر لجِّيٍّ، فلا تكن روحك آخر من تسعى في انقاذها من الغرق!
- ومختصر الحديث: صاحب من تتعلَّم الصَّبر منه لا من تتعلَّم الصَّبر عليه.

- **وجوهر المسألة:** لا تكن ليِّنا فتُعصر، أو قاسيًا فتُكسر، وخذ ما تيسَّر، ودع ما تعسَّر، فطلب الكمال من المحال..

- **وحصيلة التحقيق:** السُّـقوط لا يحتـاج للكثير من الجهد، فقط! أطلق لنفسك عنانها، فإذا بالحضيض عنوانها..

- **ومُلخَّص البحث:** نفسـك ميدانك الأوَّل، فلا تجعلها آخر شـيء تدافع عنه، وذاتك حصنك الحصين فلا تهدمها من الداخل..

- **وفصل الخطـاب:** لا تُدخل أنفك في عـشٍّ الدبابير فلها أنوف لاسعة!

- **ونخبة الفكر:** أنت سليل ظنونك: فمن ساءت ظنونه ساءت أفعاله، ومن حسنت ظنونه حسنت أعماله..

- **وجملة القول:** لو قيل لك: إنَّ القيامة تقوم غدًا، ماذا كنت ستصنـع اليوم؟! افعله الآن، ولا تقـل: فـات الأوان، فالوقت حان..

- **ولباب الفكرة:** ثمرة الغد هي: حُلم الأمس، وزرع اليوم..

- **وبيت القصيد:** بيوت العنكبوت أوهن البيوت، وهي أقوى أسلحتها للوقيعة بفرائسها، وكذلك الهموم والغموم تنسج خيوطها حول فرائسها، فلا تكن من ضحاياها..

- **ولبُّ الموضوع:** من راقب ما في أيدي النَّاس لم ير ما في يده، فعينه مشغولة بغيره، ومات همًّا وقضى غبنًا، وأرداه الطَّمع والجشع..

- **وتمام الكلام:** أنت أولى النَّاس بمالك، فلا تكن كشجرة القرع، تُنبت في أرض وتُثمر في أخرى..

- **وجامع المعنى:** هنيئًا لمن مات وماتت ذنوبُه معه!



المقدمـــة



الحمد لله الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذَّكَّر أو أراد شكورًا، والصلاة والسلام على من بعثه الله هاديًا ومبشرًا ونذيرًا، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أما بعد:

فقد قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ لرجـلٍ: كم أتى عليك؟ قال: ستُّون سنة، قال: فأنت منذ ستِّين سنة تسير إلى ربِّك ويوشك أن تبلغ، فقال الرجل: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، قال له الفضيل: أتعرف تفسيره؟ قال الرجل: فسِّره لنا يا أبا علي، قال: فمن علم أنه عبدٌ لله، وأنَّه إليه راجع، فليعلم أنَّه موقوف، ومن علم أنَّه موقوف فليعلم أنَّه مسؤول، ومن علم أنَّه مسؤول فليعدَّ للسُّؤال جوابًا، فقال الرَّجل: فما الحيلة؟ قال: يسيرة، قال:

ما هي؟ قال: تُحسن فيما بقي يُغفر لك ما مضى، فإنك إن أسأت فيما بقي أُخِذت بما مضى وما بقي[١].

هذا القول للفضيل خلاصة ما سأقوله لك في هذه الرسالة. فما دمتَ قد جاوزت سِنَّ الأربعين، فأنت ـ في الغالب ـ تعيش في الثُّلث الأجلِّ من عمرك والأجمل في حياتك، وتقضي أهمَّ مرحلة لك في زمن وجودك بهذا الوجود، وكما أنَّ الثَّمرة في ثلث النَّخلة الأعلى، وليلة القدر في الثُّلث الأخير من شهر رمضان، وساعة الاستجابة والصَّلاة المشهودة في ثلث الليل الآخر، فكذلك في ثلث عمرك النِّهائي ثمرة حياتك الماضية، وخلاصة تجربتك السَّابقة، وبقيَّة بقائك في هذا العالم الفاني، فمدرج الأعمار ما بين السِّتِّين والسَّبعين، والقليل من النَّاس تمتدُّ أعمارهم لما هو أبعد من هذا السِّن..

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَعْذَرَ اللهُ إلى امْرِئٍ أخَّرَ أجَلَهُ، حتَّى بلَّغَهُ سِتِّينَ سَنَةً»[٢].

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٨/ ١١٣) وجامع العلوم والحكم لابن رجب (١/ ٣٦٠) وسير أعلام النبلاء للذهبي (٢/ ٣٩٣).

(٢) صحيح البخاري (٦٤١٩).

وعنه رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «أَعْمَارُ أُمَّتِي مَا بَيْنَ السِّتِّينَ إِلَى السَّبْعِينَ، وَأَقَلُّهُمْ مَنْ يَجُوزُ ذَلِكَ»[١].

وعنه رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «مُعْتَرَكُ الْمَنَايَا بَيْنَ السِّتِّينَ إِلَى السَّبْعِينَ»[٢].

ولا بدَّ للمسافر من رجوعٍ إلى دياره الأولى، وللغائب من إياب إلـــى أحبابه السَّـــابقين، وكذلك من كان في ســـفر الدُّنيا الطويل فرحلته إلى نهاية، وعمره إلى نفاد، وحياته إلى انقضاء وانتهاء..

وإن امرءًا قد ســـار سبعينَ حجةً
إلى منهـــلٍ، مـــن وِردهِ لقريبُ[٣]

وقد جرت عادة النَّاس أنَّ المسافر يشتغل بما ذهب إليه في ســـفره إلا في خاتمة أيَّامه، ففي آخره لا همَّ له إلا الاســـتعداد

---

(١) رواه الترمذي في سننه برقم (٣٥٥٠) وحســـنه ابن حجر رحمه الله في فتح الباري (١١/ ٢٤٠).

(٢) رواه أبو يعلى في مســـنده برقم (١٥٤٢) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤/ ٢٢).

(٣) ينسب للحجاج بن يوسف التيمي ولأبي العتاهية إسماعيل العيني، انظره في: المجالسة وجواهر الأدب لأبي بكر أحمد الدينوري (٤/ ١٠٥).

للعودة من حيث جاء، والانشغال بالرجوع لبلده الذي كان فيه وما يأتي به لمحبيه، وهو ما يجب فعله لمن بدأ رحلة السَّفر للآخرة مع أوَّل أنفاسه في الحياة، وخصوصًا إذا جاء وقت الحصاد، وأزف الرحيل، ودنا الفراق، واقترب الوعد الحقُّ، وشارفت رحلة الحياة على الختام..

إذا الرِّجال وَلَّدَتْ أولادُها وبَلِيَت من كِبَرٍ أجسادُها
وجعَلَت أسقامُها تعتادُها تلك زروعٌ قد دنا حصادُها[1]

فما من عذر لمن يُفرِّط في أوقاته الغالية ليقضيها في الاهتمامات الرخيصة، ويضيِّع دقائقه الثَّمينة في الأشياء التَّافهة كما كان يفعل في أيامه السَّابقة ولياليه السَّالفة، فالخيل الأصيلة تُخرج أفضل ما لديها وأقوى ما عندها إذا لاح لها خطُّ النِّهاية وبدت بين عينيها خواتيم السِّباق..

«اجتهد أبو موسى الأشعري رضي الله عنه قبل موته اجتهاداً شديداً، فقيل له: لو أمسكت أو رفقت بنفسك بعض الرفق؟ فقال: إن الخيل إذا أُرسِلَت فقاربت رأسَ مُجرَاها أخرجت جميع

(١) البيتان لأيمن بن خريم الأسدي، انظر: العمر والشيب لابن أبي الدنيا (٤/ ٢٢٧).

ما عندها. والذي بقي من أجلي أقلُّ مــن ذلك، فلم يزل على ذلك حتى مات رضي الله تعالى عنه.»[١]

وما دمت حيًّا تُــرزق، وبين ضلوعك قلــب يخفق، وفي صدرك أنفاس تتردَّد، وبشــرايينك مياه الحياة تجري؛ فأنت في نعمة عظيمة لا تُقدَّر بثمــن، وغنيمة كريمــة لا تُعادلها قيمة، ومناسبة عزيزة لا يوازيها عوض، وفرصة غالية لا يعرف قيمتها إلا أصحاب القبور ومن حيل بينهم وبين ما أنت فيه..

ولو قلَّبت البصر وأمعنت النَّظر لوجدت أنَّ أحبابًا وأصحابًا كانوا يعيشــون معك، ويملــؤون عليك الحيــاة بهجة وحبورًا ونضرة وســرورًا، فأصابتهم مصيبة الموت في لحظة خاطفة، ودهتهم داهيــة المنايا في غمضــة عين عجلــى، فرحلوا في صمــت، وغابوا بــلا وداع، وغــادروا بدون رجــوع، وذهبوا وما آبوا، وكأنَّهــم ما درجوا في فجاج الدُّنيــا يومًا من الأيام، ولا عاشوا في أكنافها حينًا من الدَّهر، فهل تحسُّ منهم من أحدٍ أو تسمع لهم ركزًا؟!

---

(١) كتاب قصر الأمل لابن أبي الدنيا (ص: ١٠٨) وسير أعلام النبلاء للذهبي (٢/ ٣٩٣).

وكان بالإمــكان أن تكون منهم، لكنــك ـ بفضل الله ـ لم تكن عددًا مرقومًا في أســماء الموتى الرَّاحليــن، وما زال الله بكرمه يمدُّ لك في عمرك، وينسئ في أجلك، ويطيل في أيَّامك، ويكرمك بفرص النَّجاة، لتســتأنف العمل من جديد، وتستكثر مما جئت من أجله، وتستثمر فيما بقي لك من أيَّام وأعوام..

خُذوا منَ العَيــشِ فَالأَعمارُ فانِيَةٌ
وَالدَهرُ مُنصَرِفٌ وَالعَيشُ مُنقَرِضُ[1]

وقد أَلِفَ الكثير من الناس نفور نفوسهم من ذكر النِّهايات، واعتادوا انقبــاض صدورهم ممَّن يُذكِّرهــم بالخواتيم، ودأبوا على وحشة قلوبهم من مجالسة من يُنذرهم دنوّ الرَّحيل، وهو عين ما أفعله في حروفــي القادمة، لكنَّ حرصي على نفســي وحَدَبِي علــى غيري ألزمني بأن أكون حــادي العيس، وهادي الرَّكب، ودليل القافلة، وألبسني ثياب الواعظ النَّاصح، وقمَّصني أســمال النَّذير العريــان، وأجبرني على البــوح بما يجيش في الخاطر ويجول في الوجدان، وفي النِّذارة ما يستدني البشارة، وفي التَّحذير والتَّهويل ما ينجي مرارًا من الشَّــرِّ الوبيل، فلَأنْ

---

(١) عبد الواحد بن نصر المخزومي المعروف بالببغاء.

تجالس من يُخوِّفُك حتى تُدرك مأمنًا، خيرٌ لك أن تُصاحب من يؤمِّنُك حتى تُدرِكَكَ المخاوفُ كلُّها..

حبيبـك مـن يغـار إذا زللـتَ
ويُغلظ فـي الكلام متى أسـأتَ
يُسـرُّ إذا اتَّصفـتَ بـكلِّ فضلٍ
ويحزن إن نقصـت أو انتقصتَ
ومن لا يكتـرث بـك ولا يُبالي
أحِدت عن الصوابِ أم اعتدلتَ(١)

ولعلَّ ناقدًا راشدًا يلومني بميلي للانتصاف لهذه الشَّريحة التي أنا أحد أفرادها، والكيل لهم بما يزيد في كفَّتهم ويُرابي في مصلحتهم ويغرف فـي إنائهم ويجمع فـي إهابهم، ولا أنكر تهمته التي تسـكنني من أدناي لأقصاي، وتلبسـني من أسفلي لأعلاي، وتغشاني من مفرق رأسـي لأخمص قدميّ، وعذري أنَّها ـ في نظري ـ شريحة اعتادت ـ في الغالب ـ على التَّضحية من أجـل غيرها، وإهمـال حقوقها لتحقيق تطلُّعات سـواها، والتَّفاني في خدمة الآخرين مع جناية إنكار الذَّات وبخس حقٍّ

(١) تنسب لأبي عثمان بن لئون التيحي.

النَّفس للتَّماهي مع رغبات الغير، وأزعم أنَّ الواقع أكبر راصد لما أقول، والوقائع أكثر شـاهد لما أدَّعـي، ولا لوم على من عدَّل الميـزان المائل، ونصـب الرَّاية السَّـاقطة، وأعاد الحقَّ لأصحابه، وسوَّى الأمر في نصابه، وهو ما أرجو إدراكه وآمل حصوله في حروفي القادمة..

وزبدة الكلام؛ من كانت له بداية محرقة كانت له نهاية مشرقة، فالعِبرةُ بكمال النِّهاياتِ، لا بنَقص البدايات..



سرُّ الوجود

إذا أدرك الإنسان الغاية من وجوده في هذا الوجود، وعلم السِّرَّ الذي من أجله كان في هذا الكون، وفهم الهدف من قدومه لهذه الحياة، ووقف على الحكمة من خلقه في هذا العالم، وتيقَّن أنه في مهمة عمل في زمن محدود ووقت معدود، فإنه لابدَّ وأن يجدَّ ويجتهد، ويحرص على ما ينفعه، ويلزم ما تكون به نجاته، ويملأ كلَّ ساعة بطاعة، ويُحدِث في كلِّ لحظة من حياته قربى تقرِّبه إلى الله زلفى، ويشتغل بأسباب سعادته في العاجل والآجل، ويحاول أن يحصِّل موجبات فوزه في الدنيا والآخرة..

إن لله عبادًا فُطَنا ... طلّقوا الدنيا وخافوا الفِتَنا

نظروا فيها فلمّا عَلِموا ... أنَّها ليست لحيٍّ سكنا

جعلوها لُجّةً واتَّخذوا ... صالحَ الأعمالِ فيها سُفُنا[1]

---

(١) للإمام محمد بن إدريس الشافعي.

فإذا ما جمحت نفســه عن العمل، وأحجمــت عن البذل والفضل، وجنحــت للخمول والكســل، ودبَّ فيهــا الفتور، وتســرَّب إليها التهــاون، وقعد بهــا الخــذلان، ذكَّرها بقرب الرحيــل، ودنو الأجــل، وفجيعة الانتقال، وســرعة المغادرة، وخوَّفها سوء المصير، وأنذرها قبح العاقبة، فعادت تعدو كخيل أصيلة لاحت لها علامات النهاية، وقامت من كبوتها تبحث عن تعويض ما فاتها واستدراك ما ضاع منها..

العمر وعاء العمل، والوقت مضمار السِّباق، والحياة ميدان التنافس، فلا يذهب عمرك سدى، ولا تعِشْ بغير هدى، وخطِّط لحياتك الأخرى كما تفعل مع الأولى، وأعط كلَّ واحدة منهما من الاهتمام والاغتنام على قدر ما ستحياه بها..

﴿.. حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥].

قال مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: أدركت طلبة العلم في بلدنا يطلبون العلم والدنيا ويخالطون الناس، حتــى إذا بلغوا الأربعين تركوا الدنيا ومخالطة الناس، وتفرغوا ليوم القيامة[1].

(١) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة للقرطبي (١/ ٥٩).

ونقلوا أنَّ أهل المدينة كانوا إذا بلغ أحدهم أربعين سنة تفرغ للعبادة[١].

وقال إبراهيم النخعي: كانوا يطلبون الدنيا؛ فإذا بلغوا الأربعين؛ طلبوا الآخرة[٢].

فكن من أبناء الآخرة، ولا تكن من أبناء الدنيا، فأبناؤها محاويجُ وأيتام، وعاشقوها مهازيل مطاريد يتابعون السَّراب ويلاحقون الأوهام..

ونهاية المطاف؛ عش للدنيا على قدر مرورك بها، وعش للآخرة على قدر خلودك فيها!



(١) رياض الصالحين لأبي زكريا محيي الدين النووي (ص: ٥٧).

(٢) الزهد لابن أبي الدنيا (ص: ٢٢٢) ربيع الأبرار ونصوص الأخبار لأبي القاسم جار الله الزمخشري (١/ ٢١١).

لا تمت قبل الموت

مسكين من يشعر أنَّ دوره في الحياة قد انتهى ببلوغه سنَّ التقاعد، أو وصوله للسِّتِّين من عمره، أو تَحَصُّلِه على وسام «الجَدِّ» لأحفاده من أولاده، أو غير ذلك من الأسباب التي يرى أنها تحول بينه وبين المزيد من العطاء، وتمنعه من الاستمتاع بالحياة، وتشعره بأنه صار قليل النَّفع، عديم الفائدة، وأنَّه أصبح من سقط المتاع، وخرثي البيوت، ورديء الممتلكات، وعلى هامش الاهتمام. يشعر أنه يعيش في خريف العمر، وقد ذوى غصنه الرَّطيب، ويبس عوده الأخضر، وتساقطت أوراقه الزَّاهية، دوره على مسرح الحياة قد انتهى، ومسيرة عمره خُتمت فصولها، وتفاصيل حكايته تلفظ أنفاسها الأخيرة..

بكيتُ على الشباب بدمعِ عيني
فلم يُغنِ البُكاءُ ولا النّحيبُ
فيا أسفًا أسِفتُ على شبابٍ
نعاهُ الشّيبُ والرَّاسُ الخَضِيبُ

عريتُ من الشَّـباب وكنتُ غضًا
كما يَعـرَى من الـوَرَقِ القَضيبُ
فيـا ليـتَ الشَّـباب يعُـودُ يوماً
فأُخبـرهُ بما فعـلَ المشـيبُ[١]

وهذا شـعورٌ قاتل لا يقلُّ في مرارته عن تجرُّع العلقم، وإحساسٌ بغيض حارق لا تقلُّ حرارته عن لفح النَّار الملتهبة، ووجعٌ مُضْنٍ يمور في جوف القلب ويثور في وسـط الصَّدر كالبركـان الهائج والعاصفـة الهوجاء ليذهـب بلذَّة العيش وطيب الحياة..

وَمَن لا يَعتَبِط يَسـأَمْ وَيَهرَم وَتُسـلِمهُ المَنونُ إِلى اِنقِطاعِ
وَمـا لِلمَـرءِ خَيرٌ فـي حَياةٍ إِذا ما عُدَّ مِن سَقَطِ المَتاعِ[٢]

وهي هزيمة داخلية، وحرب نفسـيَّة يحمل لواءها الشَّيطان الرَّجيم الذي يريد به السُّوء، ويتمنّى له الحزن، ويسعى أن يغشاه الضِّيق وتسـكنه الكآبة، فيخدعه بالتلبيـس والتدليس، ويقنِّطه بالتيئيس والتبئيـس، ويحاربه بالتحريش والتحريض، ليدرك منه

---

(١) ديوان أبي العتاهية (ص: ١٩).

(٢) البيتـان لقطري بن الفجاءه، انظره في شـرح ديوان الحماسـة للتبريزي (١/ ٢٥).

نهمته، ويُصيب فيه بُغيته ﴿ .. لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [المجادلة: ١٠].

وأعتقد جازمًا أنَّ هذه الخدعة الشيطانية لن تنطلي عليك، وأنَّك تشعر بأهميَّة وجودك، وتُدرك جمال حضورك، وتعلم عُلُوَّ مكانتك، وتحسُّ بسمو كرامتك، وأنَّك ساكنٌ في سويداء قلوب محبيك، وتاج فوق رؤوس قرابتك، ووسام على صدور عائلتك، وأنَّ غدك أفضل من يومك، ومستقبلك أجمل من ماضيك، وأنَّ الآتي خير من الذَّاهب، والقادم أروع من الرَّاحل، والمقبل أنفع من المدبر، وفي حسن تدبير الله وطيب تقديره وكمال تيسيره ما يجعل الفؤاد مرتاحًا، والصَّدر منشرحًا، والنَّفس مطمئنَّة، والضَّميرَ راضِيًا، والرُّوحَ تومض بالأمل والقلب ينبض بالحياة..

يومك الأجمل لم يبدأ بعد، ورزقك الأوفر لم يحن وقته حتى الآن، وقرارك الأصوب لم تتخذه إلى هذه اللحظة، وسعادتك الغامرة قادمة في الطريق إليك، وقدَرُك المنتظر في مرحلة المخاض، وحلمك السَّابق يولد من جديد، والأشياء الجميلة في حياتك ستطل برأسها كفلق الفجر السَّعيد في غدك القريب الآتي ـ بإذن الله وفضله ـ من وراء الظلام.

الحياة في ظلِّ حسـن الظنِّ بالله تبعث في الرُّوح الأمل، وترضي القلب العليل، وتشفي الجرح النَّازف، وتشرح الصدر المكظوم، وتريـح الفؤاد المضطرب، وتجعـل للحياة طعمًا آخر بمذاق الرِّضا، ولذَّة الفأل الحسن، ومُتعة اليُمْنِ والبركة والخير الكثير..

لا تغيب الشمس إلا لتبزغ من جديد، ولا تُدفن البذرة إلا لتنبت الشَّجرة الباسقة، ولا تسقط أوراق الخريف إلا لتورق في فصل الربيع، ولا تجتمـع الغيوم السَّـوداء إلا لتهمي بالمطر وتأتي بالغيث، وليس بعد أوجاع المخاض الشَّـديد إلا تباشير المولود السَّعيد، فاستبشر بفضل الله تعالى، وتأمَّل كرمه، وانتظر فرجه، وجهِّز حقلك للبذر، وأعدَّ ميزاب بيتك للمطر، واشـتر مخدع طفلك القادم، وخِطْ ثوب العيد الجديد، وأسرج قناديل الفرح، وأوقد شـموع البهجة، فوجودك في هذا الوجود يكفي لتشرق شمس الأمل من جديد..

ونتاج المقـال: القناعة كنـز الفقراء، والجشـع فقر الأغنياء..



لتركبن طبقًا عن طبق

قضت حكمة الله تعالى أن يتطوَّر الإنسان من طور إلى طور، وينتقل من طبق لطبق، ويتحوَّل من حال إلى حال، ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾ [الانشقاق: ١٩].

قال عكرمة: حالا بعد حال؛ فطيمًا بعدما كان رضيعًا، وشيخًا بعدما كان شابًا.

وقال الحسن البصري: حالًا بعد حالٍ؛ رخاء بعد شدَّة، وشدَّة بعد رخاء، وغنى بعد فقر، وفقرًا بعد غنى، وصحة بعد سقم، وسقمًا بعد صحة[١].

فكلُّ مولود يأتي للدنيا طفلًا صغيرًا، ثم رضيعًا ضعيفًا، ثم فتىً يافعًا، ثم شابًا فتيًا، ثم رجلًا قويًا، ثم شيخًا سويًا، ثم كهلًا راشدًا، ثم هرِمًا ضعيفًا.

---

(١) تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير (٦/ ٥٨٩).

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر: ٦٧].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].

ولله على عبده في كلِّ مرحلة من مراحل حياته نعمٌ لا يحصيها إلا هو، ومِننٌ لا يجود بها سواه، وأفضال لا يقدر على خلقها غيره، ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

وجمال كلِّ مرحلة؛ أن يعيشها الإنسان بكلِّ تفاصيلها راضيًا بها، مسرورًا ببلوغها، مبتهجًا بحاله فيها، لا تنزع نفسه للتسخُّط منها، ولا تجنح روحه للتأفُّف من لوازمها، ولا يميل فؤاده للتبرُّم من تبعاتها، فعينه زائغة لما قبلها أو بعدها، وقلبه متلهِّف للخروج منها لغيرها، ونفسه تبكي فراق ما كانت فيه قبل بلوغها، فتغدو روحه في سخط دائم، وهمٍّ جاثم، وحزن لازم، كالنَّار تأكل بعضها، أو الفأس يقطع الشجرة وهو من أغصانها..

وما طول الحسرة على ما فات من الأوقات إلا إمعانٌ في تفويت جمال اللَّحظة الحاضرة، وشروع في وأد جمال السَّاعة القادمة، فعش هذه المرحلة بكل ما فيها، واستشعر أن أناسًا يصنعون من الليمون الحامض شرابًا حلوًا، ويبنون من الحجارة القاسية بيوتًا جميلة، ويجعلون من الفيافي المقفرة جنَّات ألفافًا وحدائق غُلبًا، بنفوس عظيمة لا تعرف اليأس، وقلوب راضية لا ترضى البؤس، وهمم عالية لا تؤمن بالإحباط، وعزائم قوية لا تستسلم للتثبيط والتفريط..

«دخل الوليد بن عبد الملك المسجد، فخرج كل من كان فيه، إلا شيخا قد حناه الكبر؛ فأرادوا أن يخرجوه، فأشار إليهم الوليد أن دعوا الشيخ. ثم مضى حتى وقف عليه، فقال له: يا شيخ، تحب الموت؟ قال: لا يا أمير المؤمنين؛ ذهب الشباب وشرُّه، وأتى الكبر وخيره؛ فإذا قمت حمدت الله، وإذا قعدت ذكرته؛ فأنا أحب أن تدوم لي هاتان الخلتان»[1].

فعش حياتك بكلِّ تفاصيلها، واستمتع بكلِّ أحداثها، وتلذَّذ بكلِّ حالاتها في كل مراحلها وهيئاتها، ولا يُشغلك البكاء على

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي (ص: ١٤٧).

ما فات عمَّا هو آتٍ، فالعين إذا امتلأت بالدموع أضاعت معالم الطريق..

وعمدة الكلام: **دوام الحال من المحال، فعش حياتك في كلٍّ مرحلة بأطيب حال..**



العمر الجديد

يومك هذا الذي تعيشه هو أوّل أيّام حياتك الباقية، وساعتك التي تحياها هي مبتدأ عمرك القادم، ولحظتك الراهنة هي فرصتك العظيمة في بداية حياة جديدة ومستقبل سعيد، فلا تستغرق في تذكُّر ما فات من عمرك فقد طويت صحائفه، ولا تتعمق في انتظار ما هو قادم من مستقبلك فربما لن تكون موجودًا فيه، وإنما لك الساعة التي أنت فيها..

املأ لحظاتك بما يبهجك في دنياك وآخرتك، واعمرها بما يكون سببًا في رضاك ومسرَّتك، وكن كالنَّحلة الطيِّبة لا تقع إلا على طيِّبٍ ولا تُنتج إلا طيِّبًا، ولا تكن كالذُّباب لا يقع إلا على الخراب، ولا تُشغل نفسك إلا بما فيه مصلحتك، ولا تكن فارغًا، وتَقْضِ أوقاتك بطَّالًا، وترضَ أن تكون عاطِلًا، وتعيش سبهللًا، فحياة التُّعساء لا يملؤها إلا الفراغ، وكلَّما زاد الفراغُ في بالون الهواء اقتربت لحظة انفجاره وانشطاره..

«كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إنِّي لأكره الرَّجل يعيش سَبَهلَلا، لا في عمل دنيا ولا في عمل آخرة»[١].

ويقول ابن مسعود رضي الله عنه: إنِّي لأمقت الرَّجل أراه فارغًا، ليس في شيءٍ من عمل الدنيا ولا عمل الآخرة[٢].

وكان مالك بن دينار كثيرًا ما يقول: من عرف الله فهو في شُغلٍ شاغل، وويلٌ لمن ذهب عمره باطلا[٣].

لنفسيَ أبكي لستُ أبكي لغيرِها لنفسيَ في نفسي عن النَّاس شاغِلُ[٤]

وقد جرت سُنَّة الحياة أنَّ من لم ينشغل بنفسه انشغل بغيره، والذي لا يجد في وقته ما يملأُه يتحوَّل لجهاز مراقبة للنَّاس يتابعهم بلا فائدة، ويلاحقهم بلا ثمرة، ويتعقَّبهم بلا جدوى، وفي النفس شغلٌ عن كلِّ شغلٍ..

---

(١) ذكره الجوهري في الصحاح (١|٣٠٢).

(٢) رواه الإمام وكيع في الزهد (ص: ٣٦٩) وهناد في الزهد (٢/ ٣٥٧) والبيهقي في الزهد (ص: ٧٧٤).

(٣) كتاب العمر والشيب لابن أبي الدنيا (ص: ١٤) وحلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني (٨/ ١٨).

(٤) محاسبة النفس لابن أبي الدنيا (ص: ١٢١).

شَرّ الوَرَى بمساوي النَّاس مُشْتَغِلٌ
مِثْلَ الذُّبابِ يُرَاعي مَوْضِعَ العِلَلِ[(١)]

الفراغ كأس الكسل الممزوج بالقلق والأرق، ووعاء الخيبة المملوء بالضيق والضجر، وطريق الخُسران المحفوف بالأسقام والآلام، وكلما زاد الفراغ في حياتك ثقلت عليك الأيام، وضاقت عليك مسالك الدروب، ودنت منك مزالق الانحراف، وضاعت عليك فرص البناء، وتاهت خطاك في فجاج الأرض بلا هدى..

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «نعمتانِ مغبونٌ فيهما كثيرٌ منَ النَّاس؛ الصِّحَّةُ والفراغُ»[(٢)].

إنَّ أهل القبور يتمنَّون ما أنتَ فيه من فراغ، وذوي الهمم العالية يودُّون لو أنَّهم يشترون أوقاتك المهدرة بأغلى الأثمان، وأصحابَ الأسِرَّة البيضاء يرجون ما أنت فيه من قُدرة، وأرباب الأعذار يتلهَّفون على ما أكرمك الله به من تمكُّن، ولكن ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤].

---

(١) فيض الباري على صحيح البخاري للكشميري (٦/ ١٣٨) ونسبه للصفدي في (١/ ٤٦١).

(٢) صحيح البخاري (٦٤٢١).

ومن دهتهم داهيةُ الموت يتمنَّون الرُّجوع للحياة الدنيا لاستدراك ما ضاع منهم، وتعويض ما فات عليهم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

وأهل التفريط في يوم القيامة يسألون الله أن يمنحهم فُرصة ثانية وكرَّة أخرى ليعملوا بالطَّاعات التي زهدوا فيها، ويجتنبوا السَّيئات التي تهاونوا بها ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢].

وأصحاب النَّار يطلبون من ربِّهم أن يُخرجهم منها وأن يُعيدهم للدنيا ليستأنفوا العمل الذي به سعادة الدنيا والآخرة ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ۝١٠٦ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ۝١٠٧ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٦ ـ ١٠٨].

وأهل الجنّة ـ مع ما هم فيه من نعيم مقيم وخير عميم ـ يتمنَّون الرُّجوع للحياة الدُّنيا ليستزيدوا من الأعمال الصالحة، ويستكثروا من أفعال الخير، فيضاعفوا حسناتهم

ويرفعوا درجاتهم، فإن كان هذا حال أهل الجنَّة ـ وهم فيما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ـ فما بالك بحال أهل النَّار؟! ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧].

وأنت ـ ما دمت حيًّا ـ فأنت في أمنيتهم جميعًا، فميدان العمل الصَّالح بين يديك، ومضمار التَّسابق في الخيرات تحت قدميك، فلا تُهدر عمرك الغالي في الأشياء الرَّخيصة، وتضيِّع وقتك الثَّمين في الأمور التافهة، وتملأ وعاء عمرك بالاهتمامات الفارغة، فيذهب عمرك سدى، وتمضي أيامك بلا فائدة، وتنقضي حياتك بلا ثمرة، فتندم، ولاتَ ساعةَ مندم!

﴿.. حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام: ٣١].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أن رسول الله ﷺ مرَّ بقبر، فقال: «من صاحب هذا القبر؟» فقالوا: فلان بن فلان، فقال: «**ركعتان أحبّ إلى هذا من بقيَّة دنياكم**» وفي رواية، قال: «**ركعتان**

خفيفتان مما تحقرون وتنفلون يزيدهما هذا في عمله أحبّ إليه من بقيَّة دنياكم»[1].

ومقتضب التحرير: مصيبــة الحياة الدُّنيا أنَّك لا تعرف قيمتها إلا إذا انتهت مدَّة بقائك فيها!

---

(١) رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق (١/ ١٠) والطبراني في المعجم الأوسط (١/ ٢٨٢) وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١/ ٢٨٠).

التَّكيف مع الحياة الجديدة

منطق العقل يغلب عاطفة القلب أحيانًا كثيرة، ولغة الواقع أفصح لسانًا وأبلغ بيانًا من أوهام التمنِّي، وحقيقة الحال تفرض نفسها على أهل زمانها في مواقع متعدِّدة، وليس كلُّ ما تتمنَّاه تلقاه، ولا جميع ما تحبُّه تجده، ولـذا ارضَ بالحياة الجديدة، وتكيَّف مع الدُّنيا المتغيِّرة، واستوعب الواقع المختلف، وتأقلم مع العالـم الحالي، ودعك من الحنيـن للماضي، والأنين من تغير الزَّمان، والبُـكاء على اللبن المسـكوب، والوقوف على الأطلال البائدة، والتَّمني بعودة الشَّـباب الآفل، والتَّغنِّي بحياة الطيِّبين، فلن تقف الشَّمس في كبد السَّماء، ولن تعود عقارب السَّاعة للوراء، ولن ترجع الأيام للخلف، ولابد من التَّعايش مع الواقع المعاش، والتَّفاعل مـع الأحداث الحادثة، والتَّناغم مع حركة الكون الدائمة، فلا شـيء يبقى جامدًا إلا عقل من يريد الجمود، ومن الخيبة أن تظـلَّ حزينًا باكيًا ماضيك حتى يضيع منك حاضرك، وتعكِّر صفو ما أنت فيه بهمٍّ ما أنت مُقبلٌ عليه،

أو الأســف على ما كنت فيه، فلا الزَّمان يعــود، ولا الماضي يرجع، ولا الواقع يبقى على ما عهدتــه عليه، ولا الحياة تظل واقفة بلا حراك، ومن حاول أن يُوقف دورة عجلة الزمن دهسته تحت خطاهــا، وقذفته خلــف ظهرها، فحاضــرك اليوم كان بالأمس القريب مســتقبلَك القادم، ولحظتك التي تحياها الآن ســتغدو بعد لحظة أخرى من ماضيك القديم، والكون يتغيَّر، والأحداث تتعاقب، والوقائع تتلاحق، والمستجدات تَتَّابع، ولله في خلقه شؤون، وهو كلَّ يوم في شأن!

لابدَّ أن تؤمن بأنَّك لن تســتطيع الثَّبــات في مكانك وكلُّ شيء يتحرَّك حولك، ولن تبقى جامدًا في محلِّك وعجلة الزَّمن تُطوى من تحــت قدميــك، فلا توجد منطقة وســطى ما بين التحرُّك للأمــام أو التراجع للخلف، ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر: ٣٧].

فبادر قبل أن تُبادَر، وسارع قبل أن تُسبق، وتحرَّك قبل أن تُلحق، فدوام الحال مــن المحال، والجمود طبــع الجلمود، والحركة الدَّائمة ســنَّة الله في كونه، والتَّغيير حتمٌ لازم، وتبادل الأدوار في مواقع الحياة لا يخفى على ذي عينين وشيءٌ نلمسه ونسمعه ونراه، فكرسي منصبك سيجلس عليه غيرك، وصديق

عمرك ربما لن يبقى معــك إلى آخره، وجــارك الملازم لعلَّه يســتحدث بيتًا جديدًا، وطفلك بالأمس سيطير من عُشِّك كلّما ارتاشت جوانحه واشــتدَّت قوائمه، ومعالم مدينتك تلبس في كلِّ يــوم ثوبًا جديدًا، ووســائل التواصل الحديثــة تُزري بكل وســائلك القديمة، وعاصفة التَّغيير تذرُو كل أوراقك العتيقة، والأعوام تُطــوى كطيِّ السِّــجلِّ للكتب، والأيــام حُبلى بكلِّ جديد، فلا تثبت إلا على مبادئك الرَّاســخة، ولا تقم إلا على أصول دينك القويم، ولا تتمسَّك إلا بقيمك النَّبيلة، ولا تتشبَّث إلا بمواقفك الجميلة، وأما الدُّنيا فوطِّن نفسك على التَّأقلم مع تغيرها، والتَّكيّف من تبدّلها، والتَّعايش مع اختلافها، فلا تشرق شمس يومها إلا على جديدها، ولا تغرُب إلا على فقيدها..

وثمرة الحديث: **آمن ما تكون السَّفينة عندما تكون على الشَّاطئ، لكنها لم تُصنع لهذا!**



اغسل قلبك

يتراكم الصدأ في داخل الأنابيـب حتى يغلقها، ويجتمع القيح فـي داخل البهيمة حتى يقتلها، وهكـذا تفعل الأحقاد بصاحبها، فهل يُعقل أن تبقـى الخصومات بينك وبين بعض من تعاملت معهم حتى هذا الوقـت من عمرك، وهي تقتات علـى سعادتـك كالدَّمامل المؤلمـة، وتفري فـي راحتك كالجرب القبيح؟!

هل من المقبول أن تبقى أسـيرًا لغضبـك الجامح طوال هذه السـنين المتعاقبة؟ وهل من المعقـول أن تبقى تنكأ في جرحك النازف كلَّ هذه الفترة الطويلة؟ أما وجدت في مسيرة حياتك فرصة واحدة تغسـل فيها قلبك الموجوع مما عَلِق به من دفائن وضغائن؟!

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قيل لرسـول الله ﷺ: أيُّ النَّاس أفضل؟ قال: «كلُّ مخموم القلب، صدوق اللسان». قالوا:

صدوق اللسان نعرفه، فما مخموم القلب؟ قال: «هو التَّقيُّ النَّقيُّ، لا إثم فيه ولا بغي، ولا غلَّ، ولا حسد»[١].

أما مرَّت بك لحظة صدق حاسبت فيها نفسك بحق، واتَّهمتها بالحيف على غيرك وأنَّها ربَّما تكون سببًا فيما وقع بينك وبين من خاصمته وقاصمته؟!

جبال الرِّمال تغيَّرت معالمها من جرَّاء لفح الرِّياح العاتية، ومعالم الكون تأثَّرت بمجريات الزَّمان المتعاقبة، ودولٌ سادت ثم بادت، وأُمَمٌ تتابعت في العدم، وأنت ما زلت كما أنت تحمل في قلبك المسكين حقدك القديم، كحامل سلا البهائم فوق ظهره ليقذفها داخل قبره، فبئسما قدَّم لنفسه!

وَلَيسَ كَرِيمُ القَومِ مَن يَحمِلُ الحِقدا[٢]

إذا أردت راحة البال وسعادة الحال والمآل فتخلَّص حالًا من كلِّ عداواتك السَّابقة، وتطهَّر من كلِّ أوساخ الماضي القديمة، وتمرَّد على كلِّ نزعةٍ جامحةٍ للاستعلاء على الغير، وكلِّ نزغةٍ باطلة تدعوك للانتقام من الخصوم، واصفح عمَّن

(١) صحيح ابن ماجة (٤٢١٦) صحيح سنن ابن ماجه: (٣٣٩٨).

(٢) شطر بيت للمقنع الكندي عجزه: ولا أحمل الحقد القديمَ عليهمُ ...

تعدَّى عليك، وأحسن إلى من أساء إليك، واعف عمَّن ظلمك، وتجاوز عمَّن قصَّر في حقِّك، فالعيش في هذا الوجود محدود والبقـاء فيه معـدود، فلا نملؤه بمـا ينغِّصه، والحياة سـريعة الانقضاء فلا نكدِّرها بما يعكِّرها من الضِّيق والضَّجر، والعمر أقصر من أن نقضيه في الصِّراعات والنِّزاعات، والمشـكلات والمهاترات، ففاتورة السَّـعادة أغلى فـي قيمتها من كلِّ مغانم المعمورة ولعاعها الفاني، ومهر الحياة المطمئنَّة أعلى من كلِّ مكاسب الدنيا ومتاعها الزائل..

مِـنَ الـيـومِ تَـعـارَفـنـا ... ونَـطـوي مـا جـرى مِـنَّـا
ولا كـــانَ ولا صـــارَ ... ولا قُـلـتُـم ولا قُـلـنــا
وإن كـــانَ ولا بُـــدَّ ... مِـــن العَـتـبِ فبالحُسنَـى
فـقـد قِـيـلَ لـنـا عنكُم ... كـمـا قـيـل لـكـم عـنَّـا
كفى مـا كـان مـن هَجرٍ ... وقـد ذُقـتُـم وقـد ذُقـنـا
ومـا أحـسـنَ أن نـرجِـع ... لـلـوصـلِ كـمـا كُـنَّـا[1]

إنَّ النَّار الموقدة في صدرك لن تحرق إلا سـعادتك، وإن المشكلات في حياتك كالشَّوك المبثوث في طريقك لن تدوسه

(١) بهاء الدين زهير.

إلا قدمك، وإن الضيق الذي يسكن في سويداء قلبك لن يتوجع منه إلا جسـدك، ولن تسـتوفي حقوقك مـن خصومك حتى تستوفي الأمراضُ نصيبها من راحتك وأنسك ونومك وصحتك وعافيتك..

لا شـيء في الحياة يوازي ضجعتك على سرير المرض، ولا مكسب في الدنيا يساوي فقدك لبعض بدنك، ولا مغنم في الواقع يكافئ تجرُّعك مرارةَ الدواء ومراجعة الأطباء..

وصفوة الخطاب: **غَسْلُ قلبِك أولى من غسل قدمك، ونظافة صدرك أهمُّ من نضارة ثوبك!**



الصديق الوفي

صديقك الذي لا يخون، وحبيبك الذي لا يغدر، وخليلك الذي لا يمكر، وصاحبك الذي لا يتخلَّى عنك كلما احتجت إليه وطمعت فيه، هو؛ عملك الصالح: زادك في الرَّخاء، وعُدَّتُك عند البلاء، وسبب سعادتك في دنياك، ومهاد نجاتك في آخرتك، وما استرضي ربُّك بمثل الإيمان الصادق والعمل الصالح..

فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الأخلَّاءُ ثلاثةٌ، فأمَّا خليلٌ فيقولُ: أنا معك حتى تأتيَ بابَ الملك، ثم أرجعُ وأترُكُكَ، فذلك أهلُكَ وعشيرتُك، يُشيِّعونَك حتى تأتي قَبرَك، ثم يرجعُون فيترُكُونك، وأمَّا خليلٌ فيقول: لكَ ما أعطيتَ، وما أمسكتَ فليس لك، فذلك مالُك، وأمَّا خليل فيقول: أنا معَك حيثُ دخلتَ، وحيثُ خرجتَ، فذلك عمَلُكَ، فيقُولُ: والله! لقد كنتَ من أهوَنِ الثَّلاثةِ عليَّ»[1].

(١) رواه الحاكم في المستدرك (١/ ١٤٥) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١/ ٥٤٨).

ولا يماري مجادل أو يصحّ في ذهن عاقل؛ أن يستوي المحسن والمسيء، والمقبل والمدبر، والمؤمن والكافر، والبرُّ والفاجر، ومن يأتي في المقدمة ومن يجيء في الآخر، ومن يعيش ولا همَّ له إلا البحث عن مراضي مولاه مع من ليس ذلك له على بال، ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦].

﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨].

الدنيا مزرعة الآخرة، ومضمار السِّباق، وميدان التَّنافس، وقاعة الامتحان، ودار البلاء، ومكان الاختبار، وزمان التَّمحيص، ومحلُّ المجاهدة، ومقرُّ المكابدة، وسوق المرابحة، ووقت البناء، وموطن جمع الزاد ليوم المعاد، ومن أطاب البذر طاب له الثمر، ومن اجتهد في زمان الزَّرع سُرَّ قلبه إبَّان الحصاد، ومن تزوَّد من ممرِّه تمتَّع في مقرِّه، ومن جدَّ في وقت العمل قطف أطيب الجنى إذا حان الرَّحيل وأزف التَّحويل، ومن صبر في حال البلاء رضي في وقت الجزاء.

تـــزوَّد لــلــذي لا بــد منه ... فإن المــوت ميقــات العباد

وتب مما جنيــت وأنت حيٌّ ... وكــن متنبهــاً قبـل الرُّقــاد

ســتندم إن رحلت بغير زاد ... وتشــقى إذ يناديــك المنــاد

أترضى أن تكــون رفيق قوم ... لهم زاد وأنــت بغير زاد؟[١]

وكلُّ النَّاس يتاجرون في سوق الدنيا ويرابحون في بضاعتها ويكاثرون في سلعتها، وإذا انتهى سوقها وهُدم رواقها ونُقضت أطنابها تبيَّن عند الانصراف من هلك ومن نجا، ومن ربح ومن خسر، ومن فاز ومن انهزم، ومن أخفق ومن تفوَّق؟!

عن أبي مالك الحارث بن عاصم الأشــعرِيِّ رضي الله عنه قال: قـال رسولُ اللهِ ﷺ: «كُلُّ النَّاس يغدو، فبائعٌ نفسَهُ، فمُعتِقُها أو مُوبِقُها»[٢].

ومن دخل ميدان المعركــة دون التَّزود بســلاحٍ يقاتل به يوشــك أن يكون أوَّل الضَّحايا، ومن دخل مفازة دون التَّزود بالماء يوشــك أن يموت عطشًــا، فلا تترك نفســك دون زاد، واحفر لك بئرًا قبــل أن يصيبك العطش، وابن لك بيتًا يحميك

(١) تنسب للإمام محمد بن إدريس الشافعي.

(٢) صحيح مسلم (٢٢٢).

من زمهرير الشِّـتاء وهجير الصَّيف قبل أن ترتحل إليه وتسكن فيه، فبين يديـك عقبات كأداء، وأهوال عظـام، ودواهٍ مخيفة، وبلايا مفزعة، فخذ أهبتك للسفر الطويل بزاد يقيم الأود ويقوِّي العضد ويحفظ الروح والجسد، فرحلة الرحيل للآخرة قد بدأت خطواتها مع أول أنفاسـك في الحياة، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ ﴾ [الانشقاق: ٦].

وجوهر الـكلام: **خليلـك الصَّادق لا تعرفـه إلا في المضايق!**



الاستثمار الحقيقي

من المعلوم عند كلِّ العقلاء أنَّ الوجـود في هذا الوجود مرَّة واحدة تنتهي في حياة كلِّ النَّاس بانتهاء آخر الأنفاس، وهذا عمر قصير ووقت يسـير مع ما فيه من مشـغلات وملهيات، وضرورات وحاجيات، وما يبقى للعبد منه خالصًا لا ينازعه فيه عـرضٌ ولا مرض قليل مـن قليل، ولذلك يعمـد أولو النهى وأرباب الحجـى أن يطيلوا أعمارهـم بأعمالهم الصالحة التي يسـتمرُّ خيرها في حياتهم وبعد مماتهم مـن خلال الصَّدقات الجارية والأعمال الدائمـة التي لا تـزول بزوالهم ولا تنتهي بانتهاء حياتهم، وتلك عطيَّة ربَّانية وهداية إلهيَّة يختصُّ الله بها من يشـاء من عباده، فيوفقه برحمته لمشـاريع خيرية ـ حسب قدرته وطاقته ـ يُنشِـئُها أو يُسْـهِمُ فيها قبل موته، فيضيف بها أعمارًا إلى عمره، وصحائف إلـى صحيفته، وأجورًا كثيرة في ديوان أفعاله، وأثقالًا مضاعفة في ميزان أعماله، وتغدو كالنَّهر المُتدفِّق من الحسنات الجاريات والباقيات الصالحات ينال من

بركتها ماكان حيًّا، وتأتيه في قبره أحوجَ ما يكون إليها وأرغبَ ما يكون فيها، ويصيب بها رحمة الله ودرجاته العالية في جنَّاته بيوم الخلود، لأنه كان ممن يمهد لنفسه الخير في قبره، ويتزوَّد بزاد التقوى ليوم نشره وحشره، ويرسل الخير في طريقه ليلقاه أمامه في يوم القيامة، ويجعل لنفسه رصيدًا من العمل الصالح وذخرًا من كنز التقوى ينفعه في العاجل والآجل ...

﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤].

فلأنفسهم يستعدون، ويسوّون المضجع ليسلموا من عقاب ربهم، وينجوا من عذابه[١].

امْهِدْ لنفسِكَ حانَ السُّقْمُ والتَّلَفُ
وَلا تُضَيِّعَنَّ نَفْسا مَا لَها خَلَفُ[٢]

والبصير بعاقبة أمـره يتأمَّل في واقع النَّـاس وحاجاتهم، فينهض بهمَّته ليصطفي لنفسه من الأعمال الصالحة ما يناسب عمره، ووقته، وفكره، وقَدْرَه، وقُدرَته، ورغبته، فيرمي في لبَّتها بكلِّ سـهم من كنانته، ويغرف من معينها بدلوه ما يروي غُلَّته

(١) تفسير الطبري سورة الروم آية ٤٤.
(٢) البيت لسليمان بن يزيد العدوي، انظره في: جامع البيان للإمام الطبري (٢١/ ٦٢).

ويُشبع نهمته، ويُصيب منها ما يطمع في مضاعفة أجره واستمرار ثوابه ودوام جزائه..

وهذه فطنة الأخيار في اختيار العمل البار الذي يفضُل غيره من الأعمال الصالحة التي تتفاضل فيما بينها زمانًا، ومكانًا، وعددًا، ونوعًا، وهيئة، وأثرًا، وأجرًا..

ومسكينٌ من تموت حسناته بموته، وينتهي ثوابه مع آخر أنفاسه، وتُطوى صحائف عمله بحلول أجله، لأن مدَّة بقائه في الدنيا قصيرة مهما طالت، ضيِّقة مهما اتسعت، منقطعة مهما امتدَّت، وحياته إلى نهاية مهما توالت سنينه وتتابعت أعوامه، وقُدرته محدودة بالممكن، واستطاعته محصورة بالطَّاقة، وجهده محكوم بالمتيسِّر..

الذكيُّ الألمعيُّ من يطيل عمره الاستثماري سنين عددًا، وينوِّع في مشاريعه الدائمة طرائق قِددًا، ويضاعف أجره عليها أضعافًا كثيرة، ويديمها لنفع الناس ما دام في الأرض ديّارٌ يمشي، ويشيع أثرها فوق كلِّ أرض وتحت كلِّ سماء ما استطاع لذلك سبيلًا، فتكثر شهوده، ويدوم خيره، ويمتد بِرُّه، ويتضاعف أجره، ويستمر عطاؤه، وتعظم منفعته، وتكبر آثاره..

إنَّ الوقف الخيري نهـرٍ جارٍ من الحسـنات، والفعل ذو الأجر المضاعف ثروة لا تُقدَّر بثمن، والصَّدقة الجارية استثمار لا يعرف الخسـارة، والعمل الصالح ذو النَّفع المتعدِّي تجارة رابحة لا تؤمن بالكساد، والمشـروع الذي يستمر خيره طويلًا بضاعة غالية لا يُرخصها البـوار، والمنفعة التي يدوم وجودها كثيرًا ولدٌ بارٌ لا يعرف العقـوق، والموفَّق من يكون له في كلِّ مجال جولة، ومع كلِّ فرصة صولة، وبأيِّ مشروع إِسْهام، وفي أيِّ منفعة عامة نصيب معلوم وحظٌّ مقسوم، فلا يدري ما ينقطع منها وما يـدوم، وما يـزول وما يبقى، وما يفنـى وما يخلد، وما يستمر وما ينفد..

ولُبابُ الحوار: **اترك ما يذكِّـر بك بعد رحيلك، حتى يقال عنك: مرَّ من هاهنا، وهذا الأثر!**





العادات السيئة

خاسرٌ من يظنُّ أنه سيفوز في سباقه من رفاقه في مضمار الحياة وهو مُكبَّل القدمين مُوثق الرِّجلين مُغمض العينين، تعثَّر خطواته في أصفاده، وتكبو أقدامه في أغلاله، وهذا حال من لديه عادات ذميمة وصفات سيِّئة تحول بينه وبين مدارج النجاح، وتمنعه من الرُّقي في مقامات الكمال، وتحول بينه وبين أهدافه الكبرى وأحلامه العظمى، فالعادات السَّيئة تمنع صاحبها من نهضة التَّغيير ومتعة التَّطوير، لأنها ستقول له: لا فائدة من المحاولة، ولا داعي للاجتهاد، ولا أمل في النهوض، ولا جدوى من التغيير، فيُسكتُ طبعُ العادة في داخله كلَّ صوت يدعوه للنهوض من جديد، وكلَّ نداء يستحثُّه للتخلُّص من أعباء الماضي ورواسب الجاهلية ...

وهنا تكمن أهميَّة المحاسبة للنَّفس، والمجاهدة للهوى، والمقاومة للكسل، والمدافعة لتلبيس إبليس، والممانعة من الرِّضا بالواقع، والمواجهة لقيود العادة، وما آفة المنهزم إلا

رضاه بهـا وتقبله لها، فمن عاش بين الفـرث والدَّم لم تزعجه رائحة النَّتن، ومن ألف معانقة الوِّسادة فاتته بهجة الحصول على الزِّيادة والوصول إلى السَّـعادة، وللفجر نورٌ وهَّاج لا يعرفه من اعتاد الرُّقاد، وللشَّغف ألَقٌ فاخر لا يراه من نظره محبوسٌ تحت قدمه، وللنجاح طعم فخم لا يذوقه سقيم الفم عديم الفهم..

وَمَن يـكُ ذا فمٍ مُـرٍّ مَريضٍ   يَجِد مُرًّا به المـاءَ الزُّلالا[1]

البيت الجديد لا يؤسَّـسُ فـوق عيوب القواعـد القديمة، وتصحيح المستقبل لا يتناسب مع الاعتياد على أخطاء الماضي، ومشـروع الحياة القادمة يحتاج إلى التخلِّي عن العادات السَّيئة والتَّحلِّي بالشَّجاعة للتَّخلُّص منها والنَّأي بالنَّفس عنها..

ولا عيب إلا في الرِّضا بالعيب!

خطوة التصحيح تبدأ بأهميَّة الصِّدق مع النَّفس، والحرص على كشف الحساب مع السُّلوك والنَّظر بعين المحقِّق المدقِّق في حقيقـة الطِّباع والأطمـاع لمعرفة وجـوه النَّقص ومكامن الخلل ومواطـن الزَّلل، والقيام بنهضة شـاملة في كلِّ جوانب الحياة مـع أهميَّة التَّضـرُّع والدعـاء والاستشـارة للمحبين

(١) أبو الطيب المتنبي.

الصَّادقين وأحيانًا الإصغاء لنقد الحاسدين الحاقدين، مع تكرار المحاولات الجادَّة، وعدم اليأس من النَّجاح، وسياسة النَّفَس الطَّويل، والصَّبر على مرارة المجاهدة، والمقاومة لمعاول هدم المثبِّطين، والصَّلابة في مواجهة هجوم المُشكِّكين، ليستقيم من الخُلق ما اعوجَّ على مدار السِّنين، ويصلح من الطَّبع ما فسُد مع كرِّ الجديدين ...

ونُخبة العلم: **من الفأل السَّيءِ أن يظلَّ الطَّبع السَّئِ مع صاحبه حتى يدخل به إلى قبره!**



كن سعيدًا!

السَّعادة تنبع من الداخل، وتنبعث من جوف النَّفس، وتشعُّ من بين الضُّلوع، ثم تفيض على كلِّ جوانب الحياة ومناحي العمر، فلا تطلبها من غيرك، ولا تبحث عنها عند أحدٍ سواك، ولا تعلِّق أُنسك بمخلوق أبدًا، ولا تعتمد على أيِّ كائن مهما كان في جلب السعادة لك، فالكلُّ مشغول بإسعاد نفسه وتحقيق ذاته، ولا لوم لهم ولا تثريب عليهم فهذا حقٌّ أصيل لكلِّ أحد..

ولكلِّ مرحلة من مراحل العمر ما يجلب السَّعادة إليها ويوجب السُّرور لها، فموجبات سعادة الطِّفل تختلف عن موجبات سعادة الفتى اليافع، وهو الفرق ذاتُه بين مفرحات الشباب ومبهجات الشيوخ، وهكذا كلُّ مراحل العمر لها ما يناسبها من بواعث السرور والحبور، ويلائمها من أسباب الفرح والمرح، ويوافقها من وسائل الأنس والسَّلوى، ومن أراد

أن يجعلها سويًّا فهو كمن يعطي شـيخًا كبيرًا لعبة طفل صغير ليسلو بها، فهل تستوي بهجة الطفل ببهجة الكهل؟!

وتكمن مأسـاة بعض الكبار أن يلزم قلبه في مرحلة الكبر بما كان يبتهج به في مرحلة الشـباب أو الصغر، وإلَّا كان في نظر نفسه محرومًا مغبونًا بئيسًـا تعيسًا، وتمزَّقت نياط قلبه كلَّ ممزق في البحـث عن السـعادة الموهومة والأنـس الغائب كمطارد السَّراب الكاذب، ومتابع السَّحاب الخُلَّب..

فيعيش في غير زمانه، ويخالط من هم دون جيله، ويمارس ما لا يناسب عمره، ويأتي بما لا يليق بسنِّه، ويبتذل نفسه فيما يهينه ويشـينه، ويتصابى في سـخف بالغ، ويتشبَّب في سفاهة مخجلة، فيفقد نعمة التَّصالح مع النفس، ويُحرم قيمة التعايش مع الواقع، ويُسـلب نعمة الاتِّزان فـي التَّصرُّفات، مما يجعله تحت مقصلة النَّاقدين، وفوق نُصُبِ الشَّـامتين، فيسـتخفُّ به قومه، ويسخر منه من يُعاشره، ويحتقره من يُعامله، ويستصغره من يُصاحبه، ويعرِّض شخصه للغمز واللمز، والإهانة والتهكُّم، والاستهزاء والازدراء..

إذا أنتَ لم تعرِف لنفسِـكَ حقَّهَا
هواناً بها كانت على النَّاس أَهونَا

فنَفسُكَ أكرِمها وإن ضاق مَسكنٌ
عليك بها فاطلُب لِنَفسِك مَسكَنَا[١]

ومن وضع نفسه موضع التُّهم فلا يلومنَّ من أساء به الظَّن، ومن دخل مداخل الرِّيب سرت فيه قالة السوء، ومن أرخص قيمة ذاته في سوق الكرامة عدَّه النَّاس بلا مكانة، وعاملوه بدون احترام، وعاشروه بغير تقدير، وجعلوه كعرض رخيص وشروه بثمن بخس، ومن أزرى بنفسه فلا ينتظر تبجيلًا من غيره، ومن أهان ذاته فلن يجد له من بين النَّاس من مُكرم، وعلى نفسها جنت براقش، فيداه أوكتا وفوه نفخ!

وكان كعَنزِ السُّوءِ قامت بِظِلفِها
إلى مُديَةٍ مَدفُونَةٍ تستَثِيرُها[٢]

ضفادعُ في ظلماء ليلٍ تَجَاوَبَت
فدلَّ عليها صوتُها حيَّةَ البحرِ[٣]

الرِّضا بالقضاء، والقناعة بالمقدور، والقبول بالموجود، واليقين بمعيَّة ربِّ العالمين في كلِّ مراحل العمر من أعظم

---

(١) أدب الدنيا والدين للماوردي (ص: ٣١٠).
(٢) البيت للفرزدق، انظره في التمهيد لابن عبد البر (٤/ ٢٩٨).
(٣) ديوان الأخطل (ص: ٨٤).

أسباب السعادة والتلذُّذ بالحياة والأنس بالعيش، فلا تذهب نفسك حسرات في طلب ما عند سواك فلن يكون لك، ولا تربط رضاك بما عجزت عنه، ولا تقرن أنسك بالأماني المستحيلة، ولا تقارن بين ما عندك مع ما عند غيرك، ولا تنتظر أن تأتيك المطلوبات والمرغوبات على طبق من ذهب بلا تعب أو نصب، ولا تحلم بتحقيق كلِّ الأحلام والآمال فلست في الجنة، ولا تعش في غير زمانك، ولا تنظر بعين الغبن لما في أيدي الخلق وإنما تأمَّل بعين الرِّضا لما في يديك، فليست السعادة في شيءٍ تملكه وإنما في كلِّ شيءٍ تستمتع به وتستفيد منه، ولو كان قليلًا في حياتك..

وحكمة النِّقاش: **قشور الفاكهة لا تُغني عن لبِّها، وسعادتك من الدَّاخل، فلا تبحث عنها في الخارج!**



تخلّص من أثقالك

مجهودٌ منكودٌ من يرتقي الشّاهق الباسق ويصعد الجبل الأشم، ويزيد تعبه ويتضاعف جهده إذا كان ممّن يحمل فوق ظهره ما يُثقله، فكلما زادت الحمولة تضاعفت الوعورة وتعاظمت الخطورة..

وهو حال من كبر في سنّه وطال به عمره وهو يريد الرُّقي في مدارج السّالكين لربِّ العالمين، لكنه مثقلٌ بحقوق الخلق، مُحمَّلٌ بمظالم العباد، قد تلطَّخت يده بالخوض في أموالهم والتعدي على ممتلكاتهم، ونأى كاهله بعبء الهتك لأعراضهم والفتك بمحارمهم، وغير ذلك من صور الإيذاء والاعتداء..

وهو ما يوجب عليك فتح سجلّ أيامك الماضية، وجرد حساب دقيق وعميق مع نفسك بشدَّة وحِدَّة، ومحاسبتها حساب الشَّريك الشَّحيح، ومراقبتها مراقبة النَّاقد البصير، والباحث عن نجاة نفسه في يوم المصير..

وقد أفلح من وقف مع نفسه بصدق؛ ليلزمها بإبطال الباطل وإحقاق الحق، وحاسبها حسابًا عسيرًا، وخالفها خلافًا كثيرًا، وأطرها على الحقِّ أطرًا، وقهرها لقبول العدل قهرًا، وألزمها بردِّ الحقوق لأصحابها، وإعادة الحقائق في نصابها، والتَّخلّص من تبعاتها قبل أن يقف مع أهلها على عرصات يوم القيامة ليكون القصاص الحقُّ في يوم الفصل، والوفاء من حسناته الغالية في ساعة الجزاء..

عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: إنَّ رجُلًا قعدَ بينَ يدَيِ رسولِ اللهِ ﷺ فقالَ: يا رسولَ اللهِ، إنَّ لي مَملوكينَ يُكَذِّبونَني ويخونونَني ويعصونَني، وأشتُمُهُم وأضربُهُم فكَيفَ أَنا منهُم؟ قالَ رسول الله ﷺ: «يحسَبُ ما خانوكَ وعصوكَ وَكَذَّبوكَ وعقابُكَ إيَّاهم، فإن كانَ عقابُكَ إيَّاهم بقدرِ ذنوبِهِم كانَ كفافًا، لا لَكَ ولا عليكَ، وإن كانَ عقابُكَ إيَّاهم دونَ ذنوبِهِم كانَ فضلًا لَكَ، وإن كانَ عقابُكَ إيَّاهم فوقَ ذنوبِهِم اقتُصَّ لَهُم منكَ الفضلُ». قالَت: فتَنحَّى الرَّجلُ فجعلَ يبكي ويَهتفُ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «أما تقرأُ كتابَ اللهِ ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾.. [الأنبياء: ٤٧]. فقالَ الرَّجلُ: واللهِ يا رسولَ

اللهِ ما أجدُ لي ولَهُم شيئًا خيرًا من مفارقتِهِم، أشهدُكَ أنَّهم أحرارٌ كلُّهم[(١)].

والسَّعيد من تخفَّف من أحماله الثِّقال، وأقبل على مولاه بصحيفة نقيَّة من كلِّ خطيئة، ولقي ربَّه خفيف الظهر، نظيف اليد، ضامر البطن، بريء الذِّمة، نقيَّ الصحيفة، لا يطلبه غيره بشيء كان له...

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن كانَتْ عِنْدَهُ مَظْلِمَةٌ لأخِيهِ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْها، فإنَّه ليسَ ثَمَّ دِينارٌ ولا دِرْهَمٌ، مِن قَبْلِ أنْ يُؤْخَذَ لأخِيهِ مِن حَسَناتِهِ، فإنْ لَمْ يَكُنْ له حَسَناتٌ أُخِذَ مِن سَيِّئاتِ أخِيهِ فَطُرِحَتْ عليه»[(٢)].

والبئيس التعيس الذي يعيش مستغرقًا في الشُّعور بمرارة المظلومية، ودوَّامة المؤامرة، وكابوس الخيانة، وضغوط الظنِّ السَّيِّءِ، وإلحاح فكرة الانتصار على الخصوم والخلاص من المكايد والقصاص من الأعداء، فنفسه كالزُّجاج المُهشَّم يتشظَّى مع كلِّ حركة، وخُلُقُه كشوك السَّعدان لا تسلم منها يد لامس، ولسانه كدخان الكير لا ينجو منه أنف عابر، وسوء ظنِّه

---

(١) رواه الترمذي (٣١٦٥) وهو في صحيح سنن الترمذي (٣١٦٥).

(٢) صحيح البخاري (٦٥٣٤).

بغيره كجلود الدِّباغة يعلق نتنهـا في كلِّ كفٍّ، وصدره أضيق من سَمِّ الخياط، وروحه في دبور ونفور وكدور، فأهله منه في عناءٍ دائم، وقرابته في شـقاء ملازم، وجيرانه في بلاء جاثم، وأصحابه في حروب طاحنة ومعارك ضارية، قد درج لسـانه على كثرة الشـكاوى، وأدمنـت يده كتابة الدعـاوى، وألف العكوف فـي مجالـس المطالبـة بالحقوق، واعتـاد طريق المحاكـم، ودأب على مراجعة أقسـام الشُّـرط، ومَرَدَ على الشِّقاق والفراق والمخاصمة والمراغمة..

فكيف ينجو من يوقد النَّار حوله في كلِّ اتجاه، وأنَّى يسلم من يسـتنبت الخصوم له في كلِّ ميدان، ومتى يرتاح من أتعب بأذاه كلَّ قلب، وبماذا يسعد من أشقى بجراحه كلَّ فؤاد، وكيف ينامُ قريرَ العين من أبكت صنائعه كلَّ عين؟!

ومختصـر الخبر: **مُلاعـب الأفاعي لا يسـلم يومًا من لدغها!**



جدِّد حياتك

الماء الآسن لا يصلح إلا للطفيليَّات، والنَّهر الرَّاكد لا تسكنه إلا التَّماسيح، والصَّحراء الهامدة لا يناسبها إلا وهج الهجير وصرير الزَّمهرير، والحياة دون حراك دائم كالجثة الهامدة والمقبرة الساكنة والشجرة اليابسة والجذوة الخامدة، ولا يُقصِّر العمر مثل استعلاء الضجر، ولا ينكِّد الحياة إلا وحشة الكآبة، ولا يقتل الأنس بالأشياء إلا تغوُّل السَّآمة، ولا يضيِّق العيش إلا استبداد الملل، ومن أراد بنفسه الخير أتى لها في كل يوم بجديد مفيد، وألقى بحجر في الماء الرَّاكد، ودوَّى بصوته في البلقع الخامد، وحدَّث مَسْلَكَ حركاته وتصرفاته مع كل فجر وهَّاج، وقاوم مرحلة التَّصحُّر في حياته والتَّكلُّس في معاملاته والتَّجمُّد في علاقاته، وتجدَّد بتجدّد الليل والنهار، فإنما الحياة في الحركة الدائمة والتحديث المستمر..

قوة البركان في ثورته، وجمال البحر في صخبه، وهيبة الرِّياح في لفحها، ومنفعة الشَّمس في توهُّجها، فلا تكن

كجلمود صخر هامد، أو قالب ثلج جامد، أو رماد وهج خامد، فتموت قبل الموت..

لا تسمح للعنكبوت أن تنسـج بيتها فوق ركام ذكرياتك، ولا تأذن للطيـور المهاجرة أن تبني بيوتهـا فوق جذع عمرك اليابس، ولا تقتل المتعـة في حياتك، وتجعـل أيامك صورًا متطابقـة من بعضهـا، ولا تكـرِّر انفعالاتك الماضيـة، وتُعِدْ تجاربـك القديمة، وتـردِّد كلماتك المملَّـة، وتجتر قصصك السابقة، وتستـدعِ وقائعك العتيقة، وتستنسخ أحداثك السَّالفة وتُثَنِّ أحاديثك الرَّتيبـة، ولا تجالس من تضيق الدنيا بحضوره، ولا تخالـط ثقيل الـدَّم بطيء الفهـم غثيث الفمِّ كثيـر الغمِّ، ولا تجعل يومك الحاضر كأمسك الدَّابر، فالسآمة تجعل العمر مُملًّا رتيبًا، والعيش بغيظًا كئيبًا، والحياة موحشـة مظلمة كليل شتاء طويل...

أحدث في يومك حدثًا جديدًا مفيدا لتكون مبتهجًا سعيدًا..

تابع بين الحجِّ والعمرة، وزر مسجد رسول الله ﷺ أكثر من مرَّة، وأكثر من صيام النوافل، والـزم وردك القرآني، وأدم ذكر الله تعالى، ونوِّع في المساجد التي تصلي فيها، وعدِّد أصوات القرَّاء الذين تسمع القرآن منهم، وصل الرَّحم، وزر الجار، وعد

المرضى، وشارك في المناسبات العامَّة، واقرأ كتبًا جديدة، وذق مذاقات الأشياء القديمة، وخض مغامراتك المثيرة، وأعد محاولاتك السَّابقة، وأيقظ طفلك الراقد في داخلك، وانفخ الروح في جذوة علاقاتك الخامدة، واحمل عصى الترحال فوق عاتقك، وجدِّد هندامك، وكوِّن صداقات جديدة، واجمع أحبابك عندك، وزر من هجرته، وصل من قطعته، واكتشف ما كان مجهولًا في ماضيك، وابعث هواياتك القديمة من مرقدها، ومارس الرياضة بحب ومتعة، واختلق مناسبات الفرح في حياتك، وأبهج من حولك، والعب مع الأطفال كأنَّك أحدهم، وزر الكبار كأنَّك في حاجتهم، واذهب لمعلميك وأصحابك الأوائل، وادرج في مهاجع الصِّبا، وقف على الأطلال، وجالس من تحب، وازرع حقلك المهجور، وغيِّر ألوان بيتك، وأعد ترتيب منزلك، وصاحب من يبعث السعادة في قلبك والأنس في يومك..

ولن تَعدم وسيلة التجديد والتطوير ما كنت مقتنعًا بضرورة التغيير، وإلا فستنكفئ على نفسك، وسينطفئ وهج حياتك، وستخمد نار إبداعك، وستذوي أغصان سعادتك، ولن يكون لك عمل تقوم به في حياتك إلا؛ انتظار وفاتك!

كَفى بِكَ داءً أَن تَرى المَوتَ شافِيًا
وَحَسْـبُ المَنايا أَن يَكُنَّ أَمانِيا[١]

ومُوجز النبأ: **لا تمت قبل الموت!**

(١) لأبي الطيب المتنبي، انظره في كتاب شرح معاني شعر المتنبي لابن الإفليلي (١/ ٥٦).

المشروع القادم

قرِّر الآن! هل تريد صعود درجات المجد والرُّقي في سلَّم الفضيلة، أم نــزول دركات الخزي ومهــاوي الرذيلة، أم البقاء صفرًا على الشّــمال، بلا أثر يذكر أو موقف يشــكر، وجودك كالعدم وحضورك كالغياب وذهابك كالإياب..

إذا كُنــت لا تُرجى بِدَفــع ملمَّة
وَلم يَكُ لِلمَعروفِ عِندَكَ موضِعُ
وَلا أنــتَ ذو جاه يعــاش بِجاهِهِ
وَلا أنتَ يَوم البَعث لِلنّاسِ تشفع
فَعيشــك في الدُنيا وَمَوتك واحِد
وَعُودُ خلالٍ مــن حَياتِكَ أنفَع(١)

---

(١) صالح عبد القدوس.

إذا تمايـزت المآثر فأيـن تجدك؟! إذا ذُكـرت أوصاف الكمال فأين تضع نفسـك؟! إذا عُدَّت مناقب الرجال فبماذا تُصنِّف اسمك؟!

من أنت غدًا؟ ما قدْرُك عند الله تعالى؟ ما وصفك في أنظار الخلق الذين يشهدون لك أو عليك بما يشاهدون منك أو فيك؟

لو تأمَّلـت جيل الصحابـة ـ رضوان الله عليهـم ـ الذين اختارهم الله بعلمه لمصاحبة رسوله ﷺ لوجدت أنك ـ تلقائيًا ودون عناء ـ تصنِّـف كلَّ واحد فيهم بما يناسـبه من أوصاف الكمال والجلال والجَمَال، فإذا جاء وصف الصدِّيق جاء اسم أبي بكر، والفاروق ظهر عمر، والحييُّ أتى عثمان، والشـجاع بدا علـي، والرواية أقبل أبو هريرة، وغسـيل الملائكة سـطع حنظلة، وأسـد الله لمع حمـزة، وحبر الأمّة بـان ابن عباس، والأعلم بالحلال والحرام ورد معاذ ... وهلمَّ جرا!

وهكذا جملة أصحاب رسـول الله ﷺ دخلوا على الله من أبواب متفرقة، وكتبوا أسماءهم في كتب السِّير بمداد من نور، ونقشـوا محبتهم في أفئدة الذيـن آمنوا بمـا لا تمحوه الأيام والأعوام، لأنـه كان لكلِّ واحد منهم مشـروع حياة يعيش له،

وهدف سامٍ يسـعى لتحقيقه، وحلم كبير يبنيه ما كان في الدنيا شفق وفي عمره رمق..

ولم يستغرق البعض منهم وقتًا طويلًا ليحقِّق حُلمه العظيم ويدرك غايته الغالية، فهذا سعد بن معاذ رضي الله عنه أسلم في الثلاثين من عمره، ومات في السادسـة والثلاثين، ولـم يعش في ظلِّ الإسـلام إلا سـتة أعوام، لكنه لمَّـا مات اهتـز لموته عرش الرحمن، وشيَّعه سبعون ألف ملك، وفتِّحت له أبواب السَّماء، ولمع اسمه في الخافقين، وخُلِّد ذكره في ذاكرة المجد..

وكذلك راوية الإسـلام العظيم أبو هريرة رضي الله عنه، أسلم في العام السَّـابع من الهجرة بغزوة خيبر التي لحق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى بعدها بخمس سنوات وكانت كفيلة وكافية لأبي هريرة أن يرقم اسمه في كتب الحديث من مبتداها إلى منتهاها ويحفظ للمسلمين دينهم ووصايا نبيِّهم..

وهكذا صفحات التأريخ، ودواوين السُّنَّة، ومُؤلفات السِّير، ومصنَّفات الطبقات، وكُتب المعاجم، وموسـوعات التراجم، حافلة بالأبرار الأخيار الذين كان لكلٍّ واحد فيهم مشروع حياة، وخطَّة مستقبل، وهدف عظيم يقاتل دونه ويناضل من أجله..

وهنا يأتي السـؤال المهم؛ ما مشـروع حياتك؟ هل تحيا لهدف نبيل؟ هل لديك غاية تسـعى لتحصيلهـا؟ وهل عندك ما يُذكِّر بك إذا حان الرحيل؟ وهل تركت لك ما يبقيك خالدًا في قلوب محبيك؟

﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]..

فارفع لنفسِك قبلَ موتِك ذكرَها

فالذكرُ للإنسـانِ عُمـرٌ ثاني[١]

من المعتاد أن يبدأ التخطيط المستقبلي للمشاريع الكبرى في حياة كلِّ إنسان عند فوهة شبابه وريعان عمره وبداية صباه، فهل يعقل أن يكون لآخر العمر مشـروع يناسبه؟وهل يُقبل أن يبني الإنسان نفسه من جديد؟!

الحقيقة الدقيقة تقول بأن مشروع آخر العمر أهم من أوله، وأعظم نفعًا من أعجلـه، لأنه تخطيط للحيـاة التي لا تنتهي، وتهيئة للمسـتقبل الأبديِّ السَّـرمديِّ، وترتيـب للقادم اللازم لسعادة الأبد وهناءة الخلود..

---

(١) أحمد شوقي من قصيدة مطلعها: المشرقان عليك ينتحبان.

ولذلك خطِّط لمستقبلك الحقيقي وكأنك مولود للتو، وابن اللحظة الراهنة، وحدث السَّاعة الفوري، وكأن الذي مرَّ من حياتك حلم نائم، وذكرى غائب، وصفحة طُويت، وغروب شمس ليوم أمس، وأعدَّ لنفسك مشروعًا مستقبليًا مع الله تعالى تقوم به فيما بقي لك من حياتك لتغنم خيره وتكسب فضله بعد وفاتك..

أنشئ مدرسة خيرية، ابن مسجدًا أو دار أيتام أو مؤسسة تعليمية، ألِّف كتابًا، انشر علمًا، احفر بئرًا، ورِّث مصحفًا، ازرع شجرًا، شارك في الأوقاف الخيريَّة والأعمال التَّطوعيَّة[١]..

والأفكار أكثر من أن تُحصر، فالمشاريع كثيرة، والخيارات متعدِّدة، والفرص متوافرة، لكنها تحتاج إلى قلب حيٍّ، ونفس توَّاقة للمعالي، وهمَّة تناطح عنان السماء، وعزيمة تُحلِّق بصاحبها فوق ذرى السَّحاب، ويقين راسخ بأنَّ ما عند الله خير وأبقى، وأنَّ السَّاعة آتية لا ريب فيها، وأنَّ الله يبعث من في القبور!

وأرجوك! لا تقل: فات القطار، وضاق الوقت، وضاعت الفرصة، فتلك أعذار الكسالى، ومبرِّرات الفاشلين، وحجج

(١) للمؤلف كتيب بعنوان: نهر الحسنات الجاري، وفيه أكثر من مائة فكرة للصدقات الجارية.

الخاملين، وودَّ الشـيطان لو ظفر منك بهذه الحيل ليمنعك بها من الإبداع، ويحرمـك من الإنجاز، ويفـتُّ في عضدك حتى لا تكون شيئًا مذكورًا وشأنًا مشكورًا..

أنت كبير ما كنت تُخطط لمشـروع كبيـر، وعظيم ما كان لديك هدف عظيم، فضع نفسك اليوم حيث يسرُّك أن تراها غدًا!

وخلاصة البحث: **من جاء إلى الدنيـا ثم لم يزد فيها فهو زائد عليها.**



أنت أولاً

أحمق الناس من يعمل لغيره وينسى نفسه، كالشَّمعة المحترقة والفتيلة المشتعلة لينير لغيره المكان المعتم، ويبقى هو يذوي في دياجير الظلام..

عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلُ الذي يُعلِّمُ الناسَ الخيرَ، و يَنسى نفسَه، مثلُ الفتيلةِ، تضيءُ للناسِ، و تحرِقُ نفسَها»[١].

دعك من المثاليات المزيَّفة، والشعارات الخادعة التي تجعلك صفرًا أمام نفسك، أجيرًا مرذولًا عند غيرك، فنفسك أولى بك من سواك، وذاتك أحقُّ من يجب أن تسعى لإسعادها في الدنيا والآخرة، وأنت أجدر الخلق بمالك وعنايتك وحرصك، فلا تحطب في حبل غيرك، ولا تبذر في حقل سواك، ولا تكن جسرًا يطؤه الناس بأقدامهم، وسلَّمًا يرتقون به

(١) رواه الطبراني وغيره انظر: صحيح الجامع للألباني (٥٨٣٧).

للوصول إلى أحلامهم، ولا تعش لغيرك وتنسى نفسك فتكن كحارس الكنز الجائع، وناسج الحرير العاري..

كَتَارِكَةٍ بَيْضَهَا بالعَراءِ ومُلْحِفَةٍ بَيْضَ أُخْرَى جَنَاحا[١]

اعتنِ بنفسك أولًا، فلن تكون أنانيًا إذا اهتممت بها وجعلتها محور عنايتك ثم أفضت بخيرك لغيرك..

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: أمرَ النَّبيُّ ﷺ بالصَّدقةِ، فقالَ رجلٌ: يا رسولَ اللهِ، عِندي دينارٌ، فقالَ: **«تصدَّق بهِ على نفسِكَ»**، قالَ: عِندي آخرُ، قالَ: **«تصدَّق بهِ على ولدِكَ»**، قالَ: عندي آخرُ، قالَ: **«تصدَّق بهِ على زوجتِكَ أو قالَ: زوجِكَ»**، قالَ: عندي آخرُ، قالَ: **«تصدَّق بهِ على خادمِكَ»**، قالَ: عندي آخرُ، قالَ: **«أنتَ أبصَرُ»**[٢].

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا أعطى اللهُ أحدَكم خيرًا، فليبدأ بنفسِه وأهلِ بيتِه»**[٣].

---

(١) البيت لابن هرمة، انظره في العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي (٣/ ٥٦).

(٢) رواه أبو داود، انظر: صحيح سنن أبي داود (١٦٩١).

(٣) جزء من حديث أخرجه مسلم (١٨٢٢) وذكره الألباني بهذا اللفظ في صحيح الجامع (٣٥٨).

فمن المهم ألا تتضخم فيك الأنا، ويطغى عليك حب الذات إلى درجة التقصير فيما أوجب الله عليك من النَّفقات الواجبة أو البخل بالفضل على غيرك بما فَضُلَ عن القدر الواجب، ولكن لا تكن أشقى الخلق بما في يده وأظلمَ النَّاس لنفسه..

ولن يأسف المفرِّط يوم القيامة لأنه لم يؤخِّر الخير لغيره بعد رحيله، بل سيكرع العلقم ويعض أصابع الندم لأنه لم يبذل الخير لنفسه أولًا ولحياته الدائمة ابتداءً، وسيقول في حسرة مرّة ﴿.. يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤].

لأن حقيقة الحياة الأبدية السَّرمدية التي لا تنتهي أو تنقضي ستظهر له متأخرًا بعد أن تفوته فرصة الرجوع إلى الحياة الفانية ليستدرك ما فاته و يعوِّض ما ضاع عليه ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

لن يدوم لك ما في يدك، فلم يدم يومًا لأحد قبلك ولن يبقى لأحد بعدك، فكلُّ ما في يدك عاريَّةٌ مستردَّة ومتاع مرجوع، فمنصبك سينتقل لغيرك، ووظيفتك ستكون لسواك، وثيابك ستذهب لفقير يلبسها، ومركوباتك سيملكها ويقودها سائق آخر، وبيتك سيسكنه ـ ربما ـ من لا تعرفه، وعلاقتك بمالك

ستنتهي حالما تلفظ آخر أنفاسك، لأن كلَّ ما كنت تملكه أصبح ترِكَةً لورثتك، وكلَّ شيء كان لك انتقلت ملكيَّته لغيرك، فلهم غُنمه وعليك غُرمه، ولهم لذَّته ومتعته وعليك حسـابه إن كان حلالًا أو عقابه إن كان حرامًا...

ستخسـر في لحظة واحدة كلَّ شيء كان في يدك، وكأنك ما ملكت شـيئًا حتى اسـمك الملازم لك المرتبـط بك طيلة حياتك، سيغدو اسـمك بالمتوفى، وسـيقال: أين المرحوم؟، قربوا الجثة، صلوا على الجنازة، هنا دفن الميت!

وستخرج منها كما دخلت إليها..

هذا هو القدر المحتوم والقضاء المبرم، وهكذا هي رحلة المصير، فلكلٍّ بدايـة نهاية، ولكلٍّ مقدمـة خاتمة، ولكلٍّ أوَّل آخـر، وكلُّ حيٍّ سـيموت ليواجه مصيـره مع الحـيّ الذي لا يموت..

كلُّنا إلى الله صائر، فكم سارت تلك النعوش بمثلي ومثلك من قبل!، فميِّت الغد يدفن ميِّت اليـوم، ومن بكى على غيره بكاه غيره، وإنما الجميع يتقاطرون نحو مضاجعهم، ويتتابعون إلى حتفهم، ويتعاقبون جهة قبورهم، فمتقدِّم ومتأخِّر..

كــلُّ نــــاعٍ فسيُنعى   كــلُّ بـــاكٍ فسيُبكَى
كـلُّ مذخــورٍ سيفنـى   كــلُّ مــذكُـور سيُنسى
ليـسَ غيـرَ اللهِ يبقـى   مَـن عَـلا فـاللهُ أعـلى(١)

افتح قائمة الأرقام في جوالك، فستلقى فيها أسماءً لأناس رحلوا عن الدنيا وغابوا عن الوجود، ولم يبق منهم إلا حروف أسمائهم في هاتفك جسدًا بلا روح وخبرًا بلا أثر..

وافتح ملف صورك كذلك ستجد أن الكثير منها يشاركك فيها من عشت معه طرفًا من الدَّهر وأنست به يومًا من الأيام ثم جرت عليه تصاريف المقادير فحملته فوق عنقك لتحثو عليه التُّراب بين المقابر، وتتركه لوحده بين أطباق الثرى، فغاب شخصه عن الواقع وبقيت صورته في المواقع..

ونحن على الأثر..

فلا تغترَّ بدار الغرور، ولا تركن إلى الحطام الفاني، ولا تتعلَّق بالزُّخرف الزَّائل، ولا تُفنِ عمرك في مطاردة السَّراب الزَّائف، ولا تنشغل إلا بما يسرُّك أن تراه في صحائف أعمالك يوم القيامة، لأن واقع الحال يوحي بأنَّه كلما زاد العمر زاد

---

(١) الأبيات لأبي علي الحسن بن هانئ الحكمي المعروف بأبي نواس.

الطَّمـع، وكلما طال الأجل طـال الأمل، وكلما مـرَّت الأيام والأعوام تشبَّث الإنسـان بالدنيا وزينتها وأغرق نفسه في لجج متعتها وغاص في ثبج لذَّتها..

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسـول الله ﷺ: **«يهرمُ ابنُ آدمَ، وتَشِبُّ منه اثنتانِ؛ الحرصُ على المال، والحرصُ على العُمُر»**.

وفي رواية عنه رضي الله عنه، قال: قال رسـول الله ﷺ: **«يَكبَرُ ابنُ آدمَ ويكبَرُ معه اثنانِ؛ حبُّ المالِ، وطُولُ العُمُر»**(١).

وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يهرمُ ابنُ آدمَ وتبقى منه اثنتانِ؛ الحِرصُ، والأملُ»**(٢).

ولا بأس بالجهد المعقول من الاهتمام والقدر المقبول من الحرص، فالله تبارك وتعالى يقول ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٧٧].

ولا لوم في تحصيل المباح وتوفير الحـلال، وإنما اللوم لمن اشـتغل به عن الواجب، وأوقعه في الحرام، وكان شغله

---

(١) صحيح البخاري (٦٤٢١) وصحيح مسلم (١٠٤٧).

(٢) رواه أحمد، وهو في صحيح ابن ماجة (٤٢٣٤).

الشـــاغل وعمله المتواصل، وأضنى فيه نفسه، وأفنى من أجله عمره، وضيع به حياته حتى دهته داهية الدواهي وأصابته مصيبة المصائب، وعاجله الموت بغتة وهو سادر في غفلته..

وصميم القول: **أنت تخــوض في بحر لجّيٍّ، فلا تكن روحك آخر من تسعى في إنقاذها من الغرق!**



أطايبب الثمر

إنما المرء بأصحابه، يطيـب بهم إذا طابوا، ويزين بهم إذا زانوا، ويشين بهم إذا شـانوا، ويخبث معهم إذا خبثوا، ويسعد بهم إذا اجتمعوا، وينشـرح صدره بهم إذا تلاقوا، ولذلك ابدأ حالًا بحملـة المفاضلة بيـن أصحابك لتعرف من يسـتحق صحبتك فتلزمه، ومن يجدر بك الفرار منه والنأي بالنَّفس عنه، فتخلَّص من مصاحبة الثقلاء، ومجالسـة المتشائمين والبؤساء ذوي النظرة السـوداء، والسـهر مـع أهل النفسـيَّات الحادَّة والمعاملة الجافَّة والطباع الغليظة، واحذر من السَّـفر مع من يقدِّس نفسـه ويحبُّ ذاته ويعشق شـخصه، وفرَّ من ضعيف الدِّيانة قليل الصيانة رقيق اليقين فرارك من الأسد في العرين، وتجنَّب صداقـة اللـوَّام النمَّـام، الظلوم الغشـوم، اللعوب الكذوب، حارث الفتن ومسعر الحروب، وتخلَّص في مجلسك من مرافقة متقلِّب المزاج، متعكِّر الخاطر متكدِّر الصدر، عاشق

الحــزن لصيق الضيــق، جالب الغــمِّ والهمِّ، كثير الشــكوى مستدعي البلوى، وتفاد منادمة جافي الطَّبع ضيِّق العطن، دائم التأفُّف والتبرُّم، والتألُّم والتندُّم، واهرب من معاشــرة البخيل الشحيح، الجموع المنوع، الضَّنين بفلسه الفتَّاك بضرسه، وانج بذاتك مــن صداقة المخــادع المتلون، لابــس الأقنعة متعدِّد الوجوه، المُتقلِّب الحِرباء الحيَّة الرَّقطاء، واترك محادثة الحقود الحســود، المخاصم المراغــم، العنيد الشــديد، الفظِّ الغليظ البغيض، وابتعد عن مخالطة الكسول الخامل، البليد الفاشل، التنبل النوَّام، قبيح الرائحة وسخ الهندام، واتَّق مناقشة الفاجر في خصومته الفــجِّ في مخاطبتــه اللحوح فــي مطالبته، وانأ بنفسك عن مخالطة الخليع الفاســد، العابث الفاسق، العاهر الفاجــر، الماجــن الفاتن، العاكــف على نزواتــه الغارق في شهواته، واحذر مجالسة الضَّالِّ المُبتدع، المجادل المنحرف، وتورَّع عن رفقة قليل الحياء كثير البذاء، سليط اللسان خبيث البيان، الناقد الذمَّام، العيَّاب السَّــبَّاب، الجهول بنقص نفسه، الجسور بقدح غيره وجرحه..

واحذر مصاحبة الســفيه فشر ما

جلب الندامــة صحبةُ الأشــرار

والناسُ كالأشــجار هذي يُجتَنى

منها الثمــارُ وذي وقــودُ النار[١]

وما سوى هؤلاء فهيِّنٌ ليِّنٌ، مقبول معقول، وخصوصًا إذا جمع الله له بين الأدب والنَّسب، وسلامة الدِّين وقوَّة اليقين، وكثــرة التعفُّــف وقلَّة التكلُّف، وســلامة الصدر وســهولة التعامل، وطيب القلب ولين الجانب، وكان ذا لطف وعطف، ورحمة وحكمة، ونجدة ومــؤازرة، وصاحب طرافة حاضرة وظرافة آســرة، ونداوة كفٍّ وسخاوة نفس، ومن أولي النُّهى والرأي، والنصيحة والمشورة، والسَّداد والرَّشاد، والصفات الحميدة والخلال الطيبة، ولن تعدم وجودهم في حياتك، فما يزال الشــيح في الوادي والرِّمث في البطــاح، وما يزال في قومي رماح..

وإذا صاحبــت فاصحــب ماجدًا

ذا حــيــاءٍ وعــفـــاف وكــرمْ

قولُــه للشــيء: لا، إنْ قلتَ: لا

وإذا قــلتَ: نعمْ، قـــال: نعــمْ

---

(١) أسامة بن منقذ.

ولا تجهد نفسك في البحث عن المعصوم من الخطأ، النَّقي من الذنوبَ الخليِّ من العيوب، السَّالم من النَّقص، فما مِن أُمٍّ تزعم أنها أنجبت معصومًا من الخطأ والخطايا بعد سيدنا محمدٍ ﷺ بما فيهنَّ أُمُّك التي ولدتك!

ومختصر الحديث: **صاحب من تتعلَّم الصَّبر منه لا من تتعلَّم الصَّبر عليه.**



متعة التغافل

درِّب ذاتك على تجاوز الألم، وعوِّد نفسك على قيمة التغافل، ومرِّن عقلك على فكرة التجاهل، وطبِّع تعاملك على مبدأ المداراة والمجاملة، ولا تجعل صدرك ضيِّقًا حرجًا كأنما يصَّعَّد في السَّماء، وكسَـمِّ الخياط يضيـق بالفتيلة، وكبيـت النَّملة تُغرقـه القطرة، وكالإسـفنجة تمتصُّ في جوفها الأكدار، وإيَّـاك وبُنيَّات الطريق، والتعريش على جوادِّ السُّبُل، وإنما اقصـد البحر وخلِّ القنوات، واهتمَّ بالعظائم ودعك من المحقَّرات، ولا تستغرق في التفاصيل، وتتعمق في الجزئيات، ولا تسـتَثِرْكَ المواقف الهزيلة، وتقف عند الأشـياء الصغيرة، وتهتم بالأمـور التافهـة، وتزعجك الأحداث العابرة، فإنك لن تعطيها قـدرًا من الاهتمام والاغتمام إلا أعطتك مثله من المشقَّة والتَّعب والضِّيق والاكتئاب.. وحاول في كل يوم أن تغسل روحك مما عَلِقَ بها من مؤذيات، ولا تجعل المزعجات في حياتك ندبات دائمة في داخل روحك لا تزول، وحفرًا عميقة في جدار قلبك لا تمحى، وتعلَّم كيف تنسى..

عن الحسين بن علي رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله تعالى يحبُّ معاليَ الأمور وأشرافَها، ويكره سفسافَها»**[(١)].

وطِّن نفسـك على تقبل ما لم تكن تحتمله في الماضي، وتعايش مع الناس على حالهم، وتفهَّم أفكارهم، وعاشـرهم بما يناسـبهم، فلن يرضيك منهم كلٌّ شـأنهم، ولن يعجبك ما هم عليه في كلِّ أشـيائهم، ولن يكونوا صورة طبق الأصل منك، ولا نسخًا مكرَّرة من اختياراتك ورغباتك، وكن ذا بال وسيع وصدر منشـرح، وتغافل كأنَّك أعمى، وتشاغل كأنَّك أصمٌّ، وتجاهل كأنَّك أبكم، وتغـاضَ كأنَّك لا تعلم، وتَغَابْ كأنَّك لا تفهم، وإذا جاءتـك العوراء من أحدهم فاخفض لها رأسك تَتَخَطَّكَ، واحمل تصرُّفاتهم على خير المحامل، ودارِ وجامل، وسامح وصالح، واغفر واستر، وغُضَّ الطرفَ، واقبل المعاذيـر، وادفع بالتي هي أحسـن للتي هي أقوم، وتسـامَ بنفسـك عن الدَّنايا، وحلِّـق بعيدًا في سـماء العظائم، وخذ ماتيسَّر منهم ودع ما تعسَّر عليهم، وارض بالقليل منهم تغنم،

---

(١) رواه الطبراني في الكبير والحاكم في المسـتدرك والبيهقي في السـنن، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٨٩٠).

ودارهم ما كنت في دارهم، وأرضهم ما دمت في أرضهم، ولا يراك الله إلا محسنًا معهم، ولا تقطع شعرة معاوية بينك وبينهم، وحنانيك بهم فبعض الشرِّ أهون من بعض، وحالٌ مائل خيرٌ من حالٍ معْوَجّ، وماءٌ هماج أصلح من ماءٍ أجاج..

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وإذا فاضت نفسك بالحزن من أطرافها، وامتلأت بالألم من جميع أعطافها، فاعلم أنها في حاجة لتغييرٍ عاجل وحلٍّ سريع؛ بفسحة في حلال، وفرجة في مباح، تغسلها من أوجاعها وتداويها من أسقامها، وتكون لها كالبلسم النافع والدواء الناجع، فإنه إذا استجمع غليان البركان تفجَّر بالحمم، وعندما يتمُّ سواد الليل يتنفَّس بالفجر، وحين تتلبَّد الغيوم كالجبال تنفرج بالمطر، وهكذا نفسك التي بين جنبيك إذا أصابها الوجع في مقتل، وضاقت عليها الأرض بما رحبت، فإنها تأمل في فرج قريب من واقع كئيب، وتبحث عن تنفيس أنيس من حال بئيس، وكلُّ إنسان على نفسه بصيرٌ وبمراضيها خبيرٌ، فقد يكون الفرج في زيارة صديق أو خلوة بنفس، أو سفر قريب، أو تبتُّل بليل، أو

قراءة خاشـــعة، أو دعاء خاضع، أو صدقة خفيَّة، أو صنيعة معروف، أو لهو مباح، أو طعام شهيٍّ، أو رياضة ماتعة، أو غير ذلك من الأشـــياء المريحة للنفس الموجوعة، والأمور النافعة للقلب الجريح..

وجوهر المسألة: **لا تكن ليِّنا فتُعصر، أو قاسيًا فتُكسر، وخذ ما تيسَّر، ودع ما تعسَّر، فطلب الكمال من المحال..**



سوء المنقلب

ليس من العقل أن تبني بيتًا ثم تهدمه، وتحفر بئرًا ثم تردمه، وتزرع حرثًا ثم تحرقه، وتنسج غزلًا ثم تنقضه، ما هذا بفعل العقلاء ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا .. ﴾ [النحل: ٩٢].

ومن الجليل الجميل أن تستقيم على شرع الله في صغرك، وتلتزم بالأحكام الشرعية في شبابك، وتُري الله منك خيرًا كثيرًا حال قوَّتك، وتستمسك بالذي أوحي على نبيِّك ﷺ في زمن القوَّة والفتوَّة وجموح النفس عن واجباتها وجنوحها لشهواتها، فعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ اللهَ لَيَعجَبُ من الشابِّ ليست له صَبْوةٌ»[1].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١٧٣٧١) وأبو يعلى (١٧٤٩) والحارث بن أسامة في المسند (١٠٩٩) وحسنه شعيب الأرناؤوط في تخريج مسند أحمد.

وعن أَبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «سَـبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِـي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّـهُ» ـ وفيـه: ـ «وَشَـابٌّ نَشَأَ فِي عِبَـادَةِ رَبِّهِ..»(١).

وأجمل منه أن تلازم هـذا الالتزام، وتسـتقيم على تلك الاسـتقامة، وتدوم على ذلـك الخير، وتثبت علـى الأعمال الصالحة كلما مرَّت بك السنين، وتستزيد منها كلما كرَّت عليك الأيام والأعوام..

عن نفيع بـن الحارث رضي الله عنه أن النبي ﷺ سُـئل: أيُّ النَّاس خير؟ قال: «مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ»، قِيلَ: فَأَيُّ النَّاسِ شَرٌّ؟ قَالَ: v(٢).

وعن أَبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسـول الله ﷺ: «ألا أُنبِّئُكم بخيركم؟». قالوا: بلى يا رسـول الله، قـال: «خِيارُكم أطوَلكم أعماراً، وأحسنُكم أعمالاً»(٣).

---

(١) رواه البخاري (٦٢٩) ومسلم (١٠٣٧).

(٢) رواه الترمذي في سننه (٢٣٣٠)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) رواه أحمـد (٩٢٣٥) وابن حبـان (٤٨٤) والبـزار (٨٥٥٩) والبيهقي، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٣٣٦١).

ومن المؤسف المتلف أن يتآكل تدينك من أطرافه كلما مرَّت عليك الليالي، ويضعف تعظيمك للنصِّ الشرعي كلَّما زاد علمك، وينقص إقبالك على الخير كلما طال عمرك، وتزيد غفلتك كلما دنا أوان رحيلك وزمان مغادرتك، معتمدًا على رصيدك السابق، مستندًا على أدلَّة الرَّجاء، متغافلًا عن نصوص الوعيد، مختلقًا للكثير من المبررات، متجاهلًا العديدَ من النِّذر متغافلًا عن العجيب الغريب من العبر، وكأنما أمنت العقوبة، وضمنت النتيجة، وحصَّلت البراءة، وأدركت الضمان الإلهي بالنجاة من العذاب الأليم..

فما الذي غرَّك بربِّك الكريم؟!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار: ٦ ـ ٨].

عصيت هوى نفسي صغيرًا فعندما
دهتني الليالي بالمشيب وبالكبر
أطعت الهوى عكس القضية ليتني
خلقت كبيرًا ثم عدت إلى الصغر[١]

---

(١) الأبيات لعبد الملك بن عياش الأزدي، انظر: التكملة لكتاب الصلة =

قال الله تعالى: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه يومًا لأصحاب النبي ﷺ: فيم ترون هذه الآية نزلت: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ ﴾؟، قالوا: الله أعلمُ، فغضب عمر، فقال قولوا: نعلم أو لا نعلم، فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين، قال عمر: يا بن أخي، قل ولا تحقر نفسك، قال ابن عباس: ضُربت مثلًا لعملٍ، قال عمر: أيُّ عمل؟ قال ابن عباس: لعملٍ، قال عمر: لرجل غني يعملُ بطاعة الله عز وجل، ثم بعث الله له الشيطان، فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله[1].

= لمحمد القضاعي (٨٣/٣) ونفح الطيب لأحمد المقري التلمساني (٣٢٧/٤). وقد أجابه ابنه علي بقوله:

أبي قال قولا شاع في البدو والحضر
وحث على الاحسان كُلاً وما اقتصر
هنيئاً له إذ لم يكن كابنه الذي
أطاع الهوى في الحالتين وما اعتذر

(١) صحيح البخاري لمحمد بن إسماعيل البخاري (٤٥٣٨).

إنَّ من أيقن أنَّ قلـوب العباد بين أصابـع الرحمن يقلِّبها كيفما يشاء لا يركن للأماني، ولا يعتمد على الآمال، و لا يُسلم نفســه لمضلّات الفتن، ولا يعتمد على قدرته وقوته، ولا يقنع بعمله السابق، بل يلسـع نفسه بسـياط العبر، ويُصغي لِواعِظ الإيمان في قلبه، ويُذكي جذوة الخوف في نفســه، ويتدبَّر في مصـارع الهالكين، ويبيـت ولا همَّ لـه إلا مراضـي خالقه، فلا يدري من أيِّ باب يدخل علـى الله، ولا أيِّ طريق يوصله لرضاه، ولا يعلم عن أعماله السابقة؛ هل قُبلت فيزيد أم رُدَّت في وجهه فيستأنف من جديد؟!

عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: قال رســول الله ﷺ: «إِنَّ الْإِيمَانَ لَيَخْلَقُ فِي جَـوْفِ أَحَدِكُمْ كَمَا يَخْلَـقُ الثَّوْبُ الْخَلِقُ، فَاسْأَلُوا اللهَ أَنْ يُجَدِّدَ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ»(١).

وليكن له أبلغ العظة في أصحـاب النبي محمد ﷺ الذين جاءت لهم بشـرى الحق ووعـد الصدق ممـن لا ينطق عن الهوى ﷺ بأنهم من أهل الجنة، وأتاهم الخبر الأكيد لأعيانهم بأنهم ضمنوا دخولها وأنهم من سـكّانها، فما زادهم ذلك إلا

(١) رواه الطبراني في الكبير (٨٤) والحاكم في المستدرك (١/ ٤٥) وصححه الألباني في السلسة الصحيحة (١٥٨٥).

إيمانًا وتسليمًا، وجُهدًا وجهادًا، وبذلًا وفضلًا، وخوفًا وحياءً، وتضحية وفداءً، ولم يركنوا للبشرى من أصدق الخلق بيانًا وأقومهم لسانًا ﷺ، بل كانت البشرى لهم كعودٍ زاده الإحراق طيبًا، وذهبٍ إبريز زاده التنُّور بريقًا، وكانت لهم زادًا في الطريق وحافزًا لبذل المزيد من العمل، وضاعفت من تمسُّكهم بدينهم وتضحيتهم من أجله، وأربت في حرصهم على اغتنام ما بقي لهم من الحياة في مراضي الله، فجمعوا بين الوجل والأمل، وغنموا خير العمل..

فلا تهدم ما بنيت، ولا تنقض ما غزلت، ولا تحلَّ ما فتلت، ولا تضيِّع ما جمعت، فما أقبح الحور بعد الكور، والانتكاسة خلف الاستقامة، والإدبار عقب الإقبال، والضلال في إثر الهداية، والانحراف من بعد الثبات!

﴿.. وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٢١].

وحصيلة التحقيق: **السُّقوط لا يحتاج للكثير من الجهد، فقط! أطلق لنفسك عنانها، فإذا بالحضيض عنوانها..**



رفقًا بقلبك

حاول أن تسيطر على مشاعرك، وتتحكم في عواطفك، فما عاد في وسعك أن تتحمل صدمات العواطف وخيبات المواقف، ولا تُؤْذِ نفسك بالعلاقات السِّلبيَّة، ولا تحرق أعصابك برقَّة المشاعر ودقَّة الإحساس المبالغ فيها كما كنت تفعل من قبل، ولا تترك قلبك كريشة في مهبِّ الريح تقلِّبها الأحداث ظهرًا لبطن، ولا تبك على فراق الراحلين، وتُتبع قلبكَ الشاردَ عنك ولو كان من أقرب الأقربين، ولا تتمزَّق لفراق أحدٍ غاب ـ باختياره ـ من حياتك، ولا تجمع بيضك في سلّة واحدة، ولا تجعل أحدًا من الناس كعصاتك التي تتوكأ عليها حتى لا تسقط على قفاك إذا غاب عن عينك، ولا تذرف دموعك الغالية لمن لم يهتم بها، ولا تبسط كفّك الممتدَّة لمن يبصق فيها، ولا تُقبل على من ولَّاك ظهره، ولا تفتدِ من جعلك من سقط متاعه، ولا تختزل حياتك في أحدٍ أبدًا، وتُسلمْ قلبك لمن يعذِّبه، وتنشغل بمن جعلك آخر اهتمامه وأوَّل مهملاته،

ولا تَعِـشْ كلَّك لمن لم يهبك بعضه، وتبـنِ من يريد هدمك، وتعطِ من يتلذذ بحرمانـك، لا تبكِ على من فرحه في حزنك، وتَشْـتَقَ لمن سـعادته في غيابك، وتُضَحِّ لمـن ضحَّى بك، ولا تقبل أبـدًا أن تكون كمًّا مهملًا في مُؤخـرة الرَّكب، وذيل القافلة، ومع حُثالة الإناء ودُرْدِيِّ الزيت..

إذا المَـرءُ لا يَرعـاكَ إِلّا تَكَلُّفـاً
فَدَعـهُ وَلا تُكثِـر عَلَيهِ التَأَسُّـفا
فَفي الناسِ أَبدالٌ وَفي التَركِ راحَةٌ
وَفي القَلبِ صَبرٌ لِلحَبيبِ وَلَو جَفا
فَما كُلُّ مَـن تَهواهُ يَهـواكَ قَلبُهُ
وَلا كُلُّ مَـن صافَيتَهُ لَكَ قَد صَفا
إِذا لَـم يَكُن صَفوُ الـوِدادِ طَبيعَةً
فَلا خَيـرَ فـي وِدٍّ يَجـيءُ تَكَلُّفا
وَلا خَيـرَ في خِلٍّ يَخـونُ خَليلَهُ
وَيَلقاهُ مِن بَعـدِ المَـوَدَّةِ بِالجَفا
وَيُنكِرُ عَيشـاً قَـد تَقـادَمَ عَهدُهُ
وَيُظهِرُ سِرّاً كانَ بِالأَمسِ قَد خَفا

سَــلامٌ عَلى الدُنيا إِذا لَم يَكُن بِها
صَديقٌ صَدوقٌ صادِقُ الوَعدِ مُنصِفا[١]

فصحتك ما عادت تتحمل ضغوط الحياة، وقلبك المكلوم ما غدا فيه موضع للجراح، ونفسك الموجوعة ما صارت تطيق الانكسار، فأدر ظهرك لمن لا يستحقُّك، وتجاهل من لا يراك شيئًا، وتَغَابَ مع من يتحذلق عليك، وغضَّ الطرف عمَّن يريد الإساءة إليك، ولا تُبالِ بمن لست على باله، وتعامَ عمَّن يختنق بمدحك، وتجاهل من يحترق بنجاحك، ولا تخسر نفسك لتكسب غيرك، وأعرض عمن لا يحفل بوجودك ولا يحتفي بحضورك، وما بقي لك من الحياة فاجعله لك وحدك، ولا تبعثره لأحد سواك، ولا ترض مطلقًا أن تكون على قائمة الانتظار ولائحة الاحتياط ودائرة الاحتمال، ولا تقبل على نفسك بالإهانة والإذلال مهما كانت الأحوال، فلن يركب أحدهم على ظهرك إلا إذا انحنيت له، ولن يبصق في كفِّك إلا إذا توسَّلت وصْلَه وصِلَته، ولن يرمي بك في سلَّة المهملات إلا إذا أرخصت نفسك له وأهنت ذاتك لأجله، ولن يركلك بقدمه إلا إذا هويت لتقبيلها..

(١) ديوان الإمام الشافعي (ص:).

ولا يمنعــك تجاهلهم لــك وغفلتهم عنــك أن تعاملهم بالحسنى، وتحســن إلى كلٍّ من يلقاك منهم، وتضع بصمتك الجميلة في قلوبهم، وتترك أثرك الطيِّب في حياتهم، وترســم بلمســتك الحانية معالم أخلاقك في تعاملــك معهم، ولكن لا تحترق من الداخل بســببهم وتشــعل النَّار في جوفك من أجلهم، وتذهب نفسك حســرات عليهم، ولا تبن كيان أحدٍ منهم أبــدًا على أنقاض بقاياك، ولا تُشــيِّد مجد أحدهم على بقايا كرامتك..

ومُلخَّص البحث: نفسك ميدانك الأوَّل، فلا تجعلها آخر شيء تدافع عنه، وذاتك حصنك الحصين فلا تهدمها من الداخل..



الاشتغال بالجدال

لا يختلفُ كثيرًا من يدخل البحـر ويرجو النَّجاة من البلل، ويضع أصبعه في فـم الذئب ويأمل في السَّـلامة من الأنياب، ويلقي بجســده في أتون النَّار ويطمع في الخلاص من الحريق، عن ذلك المحبِّ للنِّقاش العقيم، العاشق للمراء الدائم، المشتغل بالجدال المتواصل، وهو يأمل في السَّـلامة من ارتفاع الضغط، والتهاب القولون، وعلو السُّكَّر، وقرحة المعدة، وأوجاع الصُّداع، مع ما يحدث في الكثير من النقاشـات مـن اختلاف القلوب، وتكدُّر الخواطر، وضيق الصُّـدور، وحصول القطيعة، وحدوث الخصام، والقليل من الحوارات التي تسلم من هذه اللوازم..

فلا تنشــغل بشـؤون الآخرين ولو كانوا أحــبَّ إليك من نفســك، وتجتهد ـ حدَّ الاحتراق والانسحاق ـ في إقناع غيرك برأيك، وتدخل في خصومات جديدة، وتشـارك في نقاشــات عقيمة، وتُسْهم في معارك خاسرة، وتخوض في جدليات فارغة،

وتناقش في مواضيع سخيفة، فأربع على نفسك قليلًا، فلن تستطيع تغيير العالم، ولست مطالبًا باختراع العجلة من جديد، واكتشاف رأس الرجاء الصالح، والإتيان بما عجز عنه الأوائل..

حاول أن تعيش راضي القلب، خالي البال، مرتاح الضمير، هادىء النفس، مستقرَّ الفؤاد، بلا فواجع ومواجع، وبدون صراعات ونزاعات، ومن غير مُناكفات وسجالات..

شارك بهدوء في طرح رأيك إذا سُئلت عنه، وانصح برفق إذا دعت الحاجة، ووجِّه بحكمة ما أقبلت إليك الوجوه، واكتفِ بما مضى في حياتك من حوارات ساخنة، وجدالات جادَّة، وصراعات حادَّة، ونقاشات ملتهبة، فليست مهمتك إقناع العالم بوجهة نظرك ولا أن يكون النَّاس طوع أمرك، وتخلَّ عن فكرة الوصاية على رأي من تحاوره، وحتميَّة الانتصار على من تناظره، وضرورة إقناع المناقش بفكرتك المدهشة، ولا تُوهِم نفسك بأنك دائمًا على صواب واضح وحقٍّ أبلج وأن غيرك حتمًا على خطأٍ فاضح وباطل لجلج، ولا تقنع عقلك بأن رأيك مع مخالفيك كورقة مصحف على قارعة الطريق، وطُهر قدِّيس في بيت زنديق، وجوهرة في كفٍّ أخرق، ولا تُناقش من لا يحفل بالحقائق، ولا يعتني بالعلم، ولا يعنيه الانتصار

للمعلومة الصـــواب، فتهدي جواهرك لمـــن يرميها في الوحل ويلقيها في التُّراب، فبإمكانك أن تُــورد الحصان حوض الماء ولا يمكنك إرغامه على الشُّرب منه، وبوسعك وصفُ العلاج للمريض وليس في قدرتك حصول الشِّفاء به..

قل لنفســك الجامحة للمحاجَّة: لقد حان أوان الرَّاحة من مكابدة الخصوم ومراغمة الأنوف ومجالدة المنافسين ومقارعة المناوئين، وتصالح مع نفســك أولًا، وأرح سمعك من طبول الحرب، وأنفك من رائحة البارود، وعينك من رايات الفصائل، وقلبك من معاندة الغرماء ومكايدة الأعداء، ولا تكن قذاة عين لمن يجالسك، وعقدة منشار لمن يعاملك، وقاصمة ظهر لمن يعارضك، وغُصَّة حلق لمن يحاورك..

عن عبد الله بن مســعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَلَا أُخْبِرُكم بمَن يَحْرُمُ على النَّارِ، وبمَن تَحْرُمُ عليه النَّارُ؟ على كلِّ قريبٍ هيِّنٍ سهْلٍ**»[١].

وأقنع نفسك بأنَّ الانتصار الحقيقي إنما يبدأ بالانتصار على النَّفس، والسَّــيطرة على ما بين الضلوع، وأنَّ من المروءة ترك

---

(١) رواه الترمذي وحسنه، انظر: صحيح سنن الترمذي (٢٤٨٨).

المِراء، ومن تمام العقل البعد عن الجدال بالجهل، وأنَّ الدنيا ليست ميدان حرب، وحلبة صراع، وساحة معركة..

عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: قال رسـول الله ﷺ: «**أنا زعيمٌ ببيتٍ في رَبَضِ الجنةِ لمَن تَرَكَ المِراءَ وإن كان مُحِقًّا**»[١].

لقد آن لك أن ترتاح من جلد الـذَّات بالنَّدم أو جلد الغير بالتُّهم لتنتصـر لرأي رأيته واختيار اصطفيتـه، واترك أصحاب القناعـات الخاطئة يذوقـون مرارتها إذا عانـدوك، وكُفَّ عن مراغمة الأنوف ومقاطعة الكفوف، فربح القلوب أعظم من ربح المواقف، وصحَّتك رأس مالك، فلا تخسـرها مقابل قراراتٍ يجـوز فيهـا الخطـأ والصـواب، وآراءٍ قابلة للأخـذ والرَّد، واختياراتٍ يمكـن فيها القبـول والرَّفـض، ومواقف تحتمل اختلاف وجهات النظر..

وفصل الخطاب: لا تُدخل أنفك في عشِّ الدبابير فلها أنوف لاسعة!



(١) رواه الترمذي، انظر: صحيح سـنن أبي داود (٤٨٠٠) وحسـن إسـناده الألباني في حجة النبي ﷺ (ص: ٢٤).

حسن الظن

إنَّ الرِّضا بالقضـــاء والطَّمع في فضـــل الله تعالى والأنس بمعيَّته وعونه ومدده، وتوقُّع الأفضل في المســـتقبل من أعظم أسباب راحة البال وطيب الحال، وهو ما أنت في أمسِّ الحاجة إليه في هذه الفترة من حياتك..

الخير كالطَّير الحرّ؛ إن تودَّدت إليه سُرَّ، وإن توجست منه فرَّ، وكالثـــدي في فم الرَّضيـــع إن اســـتدرَّه درَّ، وإن تركه قرَّ، وكالبعير الشَّارد إن استعطفته أقبل، وإن أجفلته رحل..

﴿ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات: ٨٧].

يقولُ ابن مَسعُود رضي الله عنه: قسماً بالله ما ظنَّ أحدٌ باللهِ ظناً؛ إلّا أعطَاه ما يظنُّ.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قـــال: قال رســـول الله ﷺ: «**يقولُ اللهُ تَعالَى: أنا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بي، وأنا معهُ إذا ذَكَرَنِي**»[1].

---

(١) صحيح البخاري (٧٤٠٥) وصحيح مسلم (٢٦٧٥).

وعنه ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله تعالى: أنا عند ظنِّ عبدي بي؛ إنْ ظنَّ خيرًا فلهُ، وإنْ ظنَّ شرًّا فلهُ**»[١].

وعن جابر بن عبد الله ﵄، قال: سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ ﷺ، قَبْلَ مَوْتِهِ بثَلَاثَةِ أَيَّامٍ يقولُ: «**لا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إلَّا وَهو يُحْسِنُ الظَّنَّ باللهِ ﷻ**»[٢].

القلق والخوف والاكتئاب والتوتر مُوقِداتٌ للنَّار في صدرك، مُشعلاتٌ للأسى بقلبك، ولابد أن تطفىء حرَّها ببرد اليقين وحسن الظن بربِّ العالمين، وتُذهِب مرارتها بحلاوة الإيمان، وتقاوم جزع النَّفس واضطرابها بطمأنينة الرِّضا وسكينة القناعة وحسن التوكِّل على الله تعالى..

فلا تُحمِّل ظهرك ما لا تطيق، وتكلِّف نفسك ما لا تحتمل، وتُعَنِّ قلبك بما لا قدرة له عليه، وتضع هموم العالم فوق رأسك، وتَحْشُ صدرك بموجبات الضيق والكدر، ولا تُرَبِّ وحش القلق بين ضلوعك لأنه إذا جاع أكلك، ولا تُسلم نفسك لمتابعة الأخبار المزعجة حتى لا تسقي بذور الصبَّار في داخلك فيؤذيك شوكها، ولا تمض كالضرير الذي لا يفكِّر إلَّا في سوء

---

(١) صحيح البخاري (٧٤٠٥) وصحيح مسلم (٢٦٧٥).

(٢) صحيح مسلم (٢٨٧٧).

المصير، ويتوقع السُّقوط في كلِّ حفرة ومع كلِّ خطوة، فإذا لم تسقط قدمه سقطت لحظة الراحة منه في حفرة التَّوقعات المؤذية والتَّوهمات المردية، فيموت قبل الموت، ويغيب عن واقع الحياة قبل وقوع الوفاة، ولا تستغرق في الاهتمام بالأجزاء الصغيرة في الصورة الكبيرة، وتستهلك جهدك في متابعة دقائق الأحداث، وتتعمق في ملاحقة الأشياء المزعجة في حياة من تحب، وتحاول أن تتدخل في متاعب غيرك بالقدر المُتعب لك وله حتى لا تعيق مجرى الماء من الجريان فيغدو كالفيضان، ودع الحياة تمضي كما هي دون الكثير من المماحكة والملاحقة، ولا تُدقِّق في كُلِّ شيءٍ وتُحقِّق في كلِّ حَدَثٍ، فها أنت ذا بخير بعد العديد من الأحداث التي بك مرَّت في مسيرتك، وقد نجاك الله مما كنت تخافه، وحماك مما كنت تتوجَّس منه، وكفاك الكثير من الشُّرور التي كنت تحذرها..

دعك من الخيال المريض الذي يغمسك في بحر الأوهام المؤذية، فليس لزامًا أن من تأخَّر عليك وقع عليه حادث، ومن لم يتصل بك مريض، ومن غاب عنك وقعت له مصيبة، ومن طرق بابك لديه ما يحزنك، ومن تواصل معك عنده ما يخيفك..

الحياة ليست بهذا السُّوء، والأقدار ليست بهذه القسوة!

سَـهِرت أَعينٌ ونـاَت عيونُ ... في أُمورٍ تكـونُ أو لا تكونُ
إن ربًّا كفاكَ بالأمس ما كانَ ... سيكفِيكَ في غدٍ ما يكونُ[(١)]

حياتـك من صُنع أفـكارك، وتخيلاتك مـن حياكة يدك، وواقعك من نسـج تصوراتك، ومصائبك من جرَّاء توقعاتك، ورزاياك بسبب أوهامك، فالبلاء موكَّلٌ بالمنطق، والبليَّة مولعة بمن يستشرف لها، مشغوفة بمن يتوقعها..

لا تنطِقنَّ بمـا كرهتَ فربَّما ... عبث اللسان بحادثٍ فيكونُ[(٢)]

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لا تَستَشرِفُوا البَليَّةَ؛ فإنَّها مُولَعَةٌ بمن تشَرَّفَ لها، إنَّ البلاءَ مُولَعُ بالكَلِمِ[(٣)].

وعنه رضي الله عنه، قال: الْبَلَاءُ مُوَكَّلٌ بِالْقَوْلِ[(٤)].

---

(١) تنسب للإمام محمد بن إدريس الشافعي.
(٢) المقاصد الحسـنة للسـخاوي (ص: ٢٤٢) وجمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري (١/ ٢٠٧).
(٣) مكارم الأخلاق للخراطي (ص: ١٣٨).
(٤) الزهد للإمام وكيع (ص: ٣١١) والمصنف لابن أبي شـيبة (١٣/ ١٣٠) وصحح إسناده الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٧/ ٣٩٥).

وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: البلاء موكل بالمنطق، ولو سخِرتُ من كلب، لخشيتُ أن أُحَوَّلَ كلبًا[١].

وعن إبراهيم النخعي أنه قال: إنِّي لأجدُ نفسي تُحدِّثُني بالشَّيء، فما يمنَعُنِي أن أتكلَّمَ به؛ إلَّا مخافَةَ أن أُبتلى به[٢].

وحُكي أن المؤمل بن أميل الشاعر لمَّا قال يوم الحيرة:

شفَّ المؤمل يومَ الحيرة النَّظرُ
ليتَ المؤملَ لم يُخلَقْ له بصرُ

عمِيَ، فأتاه آتٍ في منامه، فقال له: «هذا ما طلبتَ»[٣].

وقال مجنون بني عامر في ليلى:

فلو كنتُ أعمى أخبِط الأرضَ بالعصا
أصمَّ فنادتني أجبتُ المناديا

فعمي وصَمَّ، وذهب بصره وسمعه[٤].

---

(١) كشف الخفاء للعجلوني (١/ ٢٩٠).

(٢) الصمت وآداب اللسان لابن أبي الدنيا (ص: ١٦٩).

(٣) معجم الأدباء؛ لياقوت الحموي (٢/ ٦٢٦).

(٤) الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء لمحمد بن عمران بن موسى المرزباني (ص: ٢٦٦).

ورُوي أن رجلًا من النصارى ـ وكان بالمدينة ـ إذا سمع المؤذن يقول: أشهد أن محمدًا رسول الله، قال: «حُرِق الكاذب»، فسقطت في بيته شرارةٌ من نار وهو نائم، فتعلَّقت النارُ بالبيت فأحرقته، وأحرقت ذلك الكافرَ معه؛ فكانت عبرة للخلق، «والبلاء موكل بالمنطق»[(١)].

وولَّى ابن حفصون ـ أحد أشهر معارضي سلطة الدولة الأموية في الأندلس ـ قائدَه عيشون المُلقَّب بالخير على مدينة «رية»، فسار إليه الأمير المنذر بن محمد ليقاتله، فقال عيشون لأصحابه: إذا المنذرُ ظفر بي، فليصلبْني بين خِنزيرٍ وكلب؛ دلالةً على استهانته به، ويقينه من الانتصار عليه، فحاصره المنذر حتى عجز أهل «رية» مما حلَّ بهم، فسلموا إلى الأمير المنذر «عيشون»، فوجه به إلى قرطبة، وصلبه وعن يمينه خنزير وعن يساره كلب كما قال[(٢)].

فلا تَسْتَدْنِ المصائب بكثرة توقعها، وتستجلب الأحزان بطول ترقُّبِها، وأعظم الطمع فيمن لا ترى الخير إلا منه،

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي (٢/ ١٣٩).

(٢) مطلع الأنوار ونزهة البصائر والأبصار لأبي عبد الله بن عسكر (ص: ٣٣٠).

ولا يأتيك المعروف إلا من لدنه، ولن تُصيب الإحسان إلا من جود خزائنه، وأحسن الظن به وترقَّب حُسن تقديره وتدبيره وتيسيره لكلٍّ جميل في حياتك..

ونخبة الفكر: **أنت سليل ظنونك: فمن ساءت ظنونه ساءت أفعاله، ومن حسنت ظنونه حسنت أعماله..**



همم وقمم

تجَّار التِّبر لا يعبأون بالتُّراب، وباعة الأحجار الكريمة لا يلتفتون للحجر المزيَّف، وجامعو اللؤلؤ والجوهر لا يجمعون الصَّدف والخزف؛ لهذا فأصحاب الهمم العالية لا يرضون بالمحقِّرات، وأهل البأس الكبير لا يقبلون من الغنيمة باليسير، وقرناء المجد لا يرضون من الغياب بالإياب، وذوو النُّفوس الكبيرة لا يقنعون بالأحلام الصغيرة، وأرباب العظائم والعزائم لا يستسلمون للهزائم..

وقد جعل الله لكلِّ شيء قدرًا، وخلق الخلائق طرائق قِددًا، ورفع بعض الموجودات فوق بعض، وجعل بعض المقتنيات أفضل من بعض، فمحالٌ أن تكون الأشياء سواء، بل تتفاضل فيما بينها كتفاضل الغالي والرَّخيص والنَّفيس والخسيس..

العاقل يأخذ من كلِّ شيء أفضله، ويستمع القول فيتَّبع أحسنه، ويعدِّد الرأي فيختار أقومه، فحبل العمر قصير لا يمتدّ،

وفجـأة الانتقال سـريعة لا تتوانـى، وفجيعـة الرَّحيل عجلى لا تتأخَّر، والمُشغلات أكثر من أن تُحصر، وما يفتُّ في العضد ويقعد بالمجتهد أكثر مما يُنشِّط الخامد الكسلان ويوقظ الخادر النَّعسان، ومن يُعجِّزون أكثر ممَّن يُحفِّزون، وللنَّفس إقبال وإدبار، وانبساط وانقباض، وفترة وشِـرَّة، وحور وكور، وقيمة الإنسان ما يحسنه، ومقدار ربحه بمقدار حسن استثماره وجودة اختياره..

إذا هَبَّـت رِياحُكَ فَاغتَنِمها   فَعُقبى كُـلِّ خافِقَـةٍ سُكونُ
وَلا تَغفَل عَنِ الإِحسـانِ فيها   فَما تَدري السُّكونُ مَتى يَكونُ
وَإِن دَرَّت نِياقُـكَ فَاحتَلِبهـا   فَما تَدري الفَصيلُ لِمَن يَكونُ[١]

ومن أدرك أنه لم يبق في عمره كمـا ذهب يجب عليه أن يكون كحامل المتاع في وقت الفـزع لا يأخذ معه إلا ما خفَّ وزنه وقلَّ حجمه وغلا ثمنه وارتفعت قيمته، والبواقي من العمر تحتاج لفطنة التَّاجر في زمن المواسم، وعزيمة المُسابق عندما يصكُّ سمعه لهث المُلاحق..

والمؤمن حقًّا والمسلم صدقًا يجعل بين عينيه يوم التَّغابن، وعلى باله يوم الحسرة، ويوقن بأنَّ الجنَّة درجات بعضها فوق بعض، وأنَّ الرُّقي في درجاتها والتَّفاضل بين طبقاتها يعتمد بعد

(١) تنسب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه وكذلك للشافعي رحمه الله.

رحمة الله تعالى على العمل الصَّالح، فمن زادت حسناته ارتفعت درجاته، ومن كثر ثوابه سمت منزلته وعلت مكانته، ومن سبقت له من الله الحُسنى في الدنيا بالعمل الصَّالح سبقت له منه الحسنى في يوم القيامة بالنَّجاة من سخطه وعقابه، وشديد حسابه، وأليم عذابه..

إنَّ الصَّالحين من عباد الله المؤمنين لا يفوِّتون اللحظة ولا يفرِّطون في الدقيقة حتى يوقعوا فيها ما يرضاه الله تعالى من القول والعمل، حتى لو أرادوا المزيد من العمل لما وجدوا مزيدًا من الوقت، ومنهم حماد بن سلمة، «قال فيه الإمام عبد الرحمن بن مهدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لو قيل لحماد بن سلمة: إنك تموت غداً ما قدر أن يزيد في العمل شيئاً»[١].

يقول الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ معلقاً على ذلك: كانت أوقاته معمورة بالتعبد، والأوراد[٢].

وقال موسى بن إسماعيل: لو قلت لكم: إني ما رأيت حماد بن سلمة ضاحكاً، لصدقت، كان مشغولاً إما أن يُحدِّث

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم (٦/ ٢٥٠) وتذكرة الحفاظ وذيوله للذهبي (١/ ١٥١).

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي (٧/ ٤٤٧).

أو يقرأ أو يُسبِّح أو يُصلِّي، قد قسَّم النهار على ذلك. وقد مات رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الصلاة في المسجد[(١)].

وكان صفوان بن سليم قد تعقَّدت ساقاه من طول القيام، وبلغ من الاجتهاد ما لو قيل له: «القيامة غدًا» ما وجد متزيدًا.... وكان يقول: «اللهم إني أحب لقاءك فأحب لقائي»، وقال أنس بن عياض: رأيت صفوان بن سليم، ولو قيل له: «غدًا القيامة» ما كان عنده مزيدٌ على ما هو عليه من العبادة[(٢)].

وهذا أبو مسلم الخولاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول عن نفسه: لو قيل لي: إن جهنَّم تُسعَّرُ ما استطعت أن أزيدَ في عملي[(٣)].

وكذا منصور بن المعتمر رَحِمَهُ ٱللَّهُ لو قيل له: إن ملك الموت على الباب ما كان عنده زيادة في العمل، فقد كان يصلي من طلوع الشمس إلى أن يصلي العصر، ثم يجلس يسبح في مصلاه إلى المغرب[(٤)].

---

(١) ميزان الاعتدال للذهبي (١/ ٥٩١) وحلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني (٦/ ٢٥٠) وصفة الصفوة لابن الجوزي (٣/ ٢٥٤).

(٢) صفة الصفوة لابن الجوزي (١/ ٣٤٦).

(٣) رواه عبدالله بن أحمد بن حنبل في زياداته على الزهد (١/ ٦٥١) وأبو نعيم الأصبهاني في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢/ ١٢٤).

(٤) سير أعلام النبلاء للذهبي (٦/ ١٥٨).

وهذا عبد الرحمن بن أبي أنعم البجلي لو قيل له: إن ملك الموت قد توجه إليك ما كان عنده زيادة في العمل[١].

وهـذا ابن أبي ذئب قريـن الإمام مالـك رَحِمَهُ ٱللَّهُ من علماء المدينة، كان يُصلِّي ليلهُ أجمـع، ويجتهد في العبادة، ولو قيل له: إن القيامة تقوم غداً ما كان فيه مزيد من الاجتهاد[٢].

وكان سليمان التيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو من كبار أئمة التابعين، ومن عُبَّادهم يصفه حماد بن سـلمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيقول: ما أتينا سـليمان التيمي في سـاعة يطاع الله فيها إلا وجدناه مطيعاً، إن كان في ساعة صلاة وجدناه مصلياً، وإن لم تكن ساعة صلاة وجدناه إما متوضئاً، أو عائداً، أو مشـيعاً لجنازة، أو قاعداً في المسـجد، قال: فكنا نرى أنه لا يُحسن يعصي الله[٣].

وجملة القـول: **لو قيل لك: إنَّ القيامـة تقوم غدًا، ماذا كنت ستصنع اليوم؟! افعله الآن، ولا تقل: فات الأوان، فالوقت حان..**

---

(١) تذكرة الحفاظ للذهبي (١/ ١٤١).

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي (٤/ ٢٠٣).

(٣) حلية الأولياء لأبي نعيم (٣/ ٢٣) صفة الصفوة لابن الجوزي (٣/ ٢٩٧) تاريخ الاسلام للذهبي (٩/ ١٥٧).



القناعة

في عطاء الله الواسع ما يقضي الحاجات، وفي كرمه الفيَّاض ما يُغري الطَّالبين، وفي جوده العظيم ما يُحقِّق الآمال، وفي سوابغ فضله ما يرضي القلوب الشَّغوفة بالتَّمنِّي ويكفي النُّفوس الرَّاغبة في المزيد من المتاع، وفي فيوض رزقه ما يملأ يدك بالخير الكثير، فلا تمدنَّ عينيك إلى في أيدي النَّاس، وتنظر في أملاك غيرك، وتذهب نفسك حسرات على ما فات عليك، واقنع بما آتاك مولاك، واحمد الله على عطاياه الواسعة وآلائه الماتعة، فالرِّضا بالقضاء؛ جنَّة الله في قلوب عباده، وثمرته الدانية لأحبابه، ونعيمه المعجَّل لأوليائه، وجائزته السَّريعة للمطمئنةِ نفوسُهم بعطائه وجزائه ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١].

ليس هناك أكثر بؤسًا من إنسان بلا رضا، ناقمٍ أبدًا، ساخطٍ دائمًا، متأفِّفٍ من حظِّه، متبرِّم من قدره، متذمِّرٍ من نصيبه، بطنُه

لا تَشْبع، ونفسه لا تقنع، وقلبه لا يشكر، ولسانه لا يذكر، لا يستشعر قيمة ما لديه، ولا يدرك عظمة ما أفضل الله به عليه، ولا يرضى بما قسم الله له..

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**قد أفلَحَ من أسلَمَ، ورُزِقَ كَفافًا، وقَنَّعَهُ اللهُ بما آتاهُ**»[١].

لا تلهث في طلب متاع الدُّنيا فإنَّه كهشيم ذابل، ولا تخلُد نفسك لحطامها الفاني فإنَّك عنها راحل، وتركن للنَّعيم الهالك فإنه ـ وإن كان مغريًا ـ إلا أنه عرض زائل، ولا تأس على ما لم يكتب لك منها فإنه متاع منقطع، وتلهث في طلب المزيد من نعيمها فإنه ـ وإن قلَّ أو كثر ـ إلى فناء، واحذر من إقبالها عليك فإنَّها كغاوية مُغرية تغرُّك بزينتها وتجذبك بفتنتها حتى تُوقعك في حبائلها، فإذا بك الحبيب المستهام والعاشق المتيَّم والمغرم الولهان، فإذا تمكَّنتْ منك أوقعتْك في آثامها ولطَّختك بأوحالها فلم تفق من سكرتك بها وحُبِّك لها إلا على صيحة الموت تدوِّي فوق رأسك من أحبِّ أحبابك..

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴾ [فاطر: ٥].

---

(١) صحيح مسلم (١٠٥٤).

مسكين من يُوقد النَّار في صدره ويشعل الحرائق داخل فؤاده، ويطيل التحسُّر على أحلامه الضائعة وآماله الخائبة وأمانيه المستحيلة، ويندب حظه، ويشتكي دهره، ويبكي حاله، ويتبرَّم من واقعه، ويتأفَّف من وضعه، ويعضُّ أصابع النَّدم على ما فات منه وضاع عليه، وينسى ما هو فيه من خير كثير، ويتجاهل ما أكرمه الله به من نعم لا تُحصى وخيرات لا تُعدّ، ويتغافل عن الكثير من الخير الذي أكرمه الله به وزواه عن غيره، وينظر للجانب المظلم من القمر، ويبصر النِّصف الفارغ من الكأس، وينسى كم دفن من أصحابه وأقاربه وربما كان بعضهم في ريعان شبابه وكامل قوَّته، ويتجاهل من قضوا حياتهم محبوسين داخل أجسادهم مكبَّلين عن الحركة لما في أبدانهم من إعاقات وعاهات، ويتغافل عمَّن قضوا سنين عددًا من أعمارهم داخل أقفاص السُّجون لغلطة عابرة في حياتهم مرَّت سكرتها وبقيت حسرتها، ويتعامى عن أناس كثر عاشوا سحابة حياتهم في غربة وكربة أبعد ما يكونون عن بلادهم وأولادهم ليفنوا حياتهم في خدمة غيرهم بأبخس الأثمان وفي أرهق الأعمال، ولكنه لا يتذكَّر إلا الأحزان ولا يعدُّ إلا البلايا، ولا يتكلَّم إلا عن الضيق الذي مرَّ به والحسرة المُرَّة التي

طرقت بابــه، ولذلك فهو حزين القلب مرهق الشــعور مضنى الإحساس متعب الأنفاس..

يحرمه الجشع لذَّة الأنس بما في يده، ويسلبه الطمع رضى القلب بما قُدِّر له، ويمنعه الهلع متعة الاستمتاع بحياته، فمتى يرضى عن الله ليرضيه، ويشكره ليزيده، و يعرف فضله ليعطيه، ويقدِّر نعمه ليحفظها له؟!

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن يأخذ عني هؤلاء الكلمات فيعملُ بهنَّ، أو يُعلِّم من يعمل بهنَّ؟». قلت: أنا يا رســول الله! فأخذ يدي فعدَّ خمسًا، فقال: «اتَّقِ المحارم تكن أعبد الناس، وارضَ بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارك تكن مؤمنًــا، وأحبَّ للناس ما تحبُّ لنفســك تكن مسلمًا، ولا تكثر الضَّحك؛ فإنَّ كثرة الضَّحك تميت القلب»[١].

القناعــة كنز لا يفنــى، والرِّضا نعيم لا يبلــى، والفقر في القلب وليس في الجيــب، والغنى غنى النَّفس، والسَّــعيد من رضي عن الله وأرضى عنه مولاه، وما دون ذلك فغثاء لا يستحقُّ العناء، وفناء لا يستأهل البقاء..

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٠٥)، وابن ماجه (٤٢١٧)، وأحمد (٨٠٩٥) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٧٨٣٣).

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ»[(١)].

واقعك أفضل من واقع كثيرٍ من الخلق، وحياتك أجمل من حياة عديدٍ من النَّاس، ولو تأمَّلت فيما ملكت يمينك من رزقٍ لتيقنت أنَّه أعظم مما كنت ترجوه، وأكثر مما تطلبه، وأنفع مما تأمله، وأوسع مما تسأله، ومهما زهَّدك الشيطان فيما عندك، وتاقت نفسك للمزيد منه، إلا أنَّك في خير كثير يغبطك عليه الكثير من البشر، وتحتاج معه إلى الكثير من الحمد، والمزيد من الشُّكر، ورؤية مِنَّة الله عليك فيه، والرِّضا عنه ـ سبحانه ـ وبما قسمه لك من الأرزاق، وكتبه من النِّعم، وهَيَّأَه من الخيرات..

«قال صالح بن جناح الدمشقي لإبنه: يابني! إذا مرَّ بك يوم وليلة قد سلم فيهما دينك، وجسمك، ومالك، وعيالك، فأكثر الشكر لله تعالى، فكم من مسلوب دينه، ومنزوع ملكه، ومهتوك ستره، ومقصوم ظهره في ذلك اليوم، وأنت في عافية»[(٢)].

---

(١) صحيح البخاري (٦٤٤٦)، وصحيح مسلم (١٠٥١).
(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي (٣/ ٢٢٢).

فلا تجحد فضله، وتنكر معروفه، وتكند إحسانه وإنعامه وإكرامه، وتظل كمنهوم يطارد الدُّنيا بلا اكتفاء، ويأكل من متاعها بلا شبع، ويلهث خلف حطامها بلا راحة، ويتحسَّر على ما فاته منها بلا قناعة، وكلما زادت في يده زاد حرصه عليها وطلبه لها، كمطارد السَّراب لا يزيد بلحوقه إلا تعبًا، وشارب ماء البحر لا يزيد به إلا عطشًا، وطالب الأمن من جِنٍّ الوادي فلا يزيد بهم إلا خوفًا ورهقًا..

ولبُّ الموضوع: من راقب ما في أيدي النَّاس لم ير ما في يده، فعينه مشغولة بغيره، ومات همًّا وقضى غبنًا، وأرداه الطَّمع والجشع..





لبئسما قدمت أيديهم

من الحمق أن تُلوِّث البئر التي شربْتَ منها، وتُشعل النَّار في حطب الشِّتاء عند هبوب جمرة القيظ، وتُحطِّم قارب نجاتك وأنت تريد عبور النَّهر الجاري، وتُلقي الأشواك في طريقٍ أنت على يقينٍ أنك ستمر به يومًا حافي القدمين...

وأحمقُ الحمق؛ أن تُفسد آخرتك بصلاح دنياك، وتُسيء إلى مستقبلك القادم بما تُمارسه في حاضرك من عظائم المآثم ومساوئ الجرائم، فتجترح القبائح، وتقع في الفضائع، وتتَّسخ بسيئ الموبقات، وتتلطَّخ برديء القاذورات، وتُمارس الخطايا والرَّزايا والبلايا، وتتمنَّى على الله الأماني، دون توبة صادقة أو رجوع صحيح أو محاسبة للنَّفس ومقاومة للهوى..

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ ﴾ [الانشقاق: ٦].

ومن جمع العقارب في إهابه يوشك أن تلسعه بسُمِّها، ومن نام بين الأفاعي نهشته بنابها، ومن غاص في حوض

التَّماسيح لاكته بفكِّها، وهكذا تفعل الموبقات بصاحبها ﴿ لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴾ [النساء: ١٢٣].

وقبيح أن يسيء الإنسان لنفسه طيلة حياته بكثرة الذنوب والسيئات، وأقبح القبح أن تكون تلك السوءات في توالي دنياه، ونهاية حياته، وأواخر عمره، وخواتيم عمله، فإنَّما الخواتم قواصمُ؟ أو عواصمُ..

عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِخَوَاتِيمِهَا»[1].

ومن المعلوم المفهوم؛ أنَّ العصمة ماتت مع نبينا محمد ﷺ، فلا ينجو من الذنوب أحد، ولا يسلم من الوقوع فيها إنسان كائنًا من كان، ومن ادَّعى السَّلامة منها فقد أعظم الفرية وأكبر الكذبة، وواقع حاله يغني عن فضح مقاله..

والذُّنوب حظّ المرء من دناءة الدُّنيا وقبحها، ونصيبه من عناء المعيشة ونكدها، وهي سبب البلاء وباعثة الشقاء، وموجبة العقوبة وجالبة البؤس والعناء، ﴿ فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ

(١) صحيح البخاري (٦٤٩٣) وصحيح مسلم (٢٦٥١).

أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

والموفَّق الذي إذا زلَّت قدمه فيها وكبت رجله في مساويها، نزع عاجلا وأقلع سريعًا، وأحدث توبة صادقة وأوبة مخلصة، ونقَّى صحيفته منها بالاعتذار والاستغفار، وأحدث من الأعمال الصَّالحات والمكفِّرات الماحيات ما يستدني به مغفرة ربِّه، ويستجلبُ منه عفوه، ويستوهب مسامحته، ويستجدي بها مولاه التجاوزَ عن زلَّاته وسيِّأته، وفي ذلك فلاحُه ونجاحه بدنياه وآخرته، ونجاتُه وسعادته في عاجله وآجله..

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

ومن المُؤسف المُتلف أن يجعل بعض النَّاس فساد الكثير منهم مُبررًا لخطئه وحُجَّة يحتجُّ بها على فساده، وتلك سوءة ما بعدها سوءة، فشدَّة الغفلة من غيره تستلزم شدَّة الانتباه منه، وكثرة اللاهين بدنياهم توجب عليه كثرةَ الاشتغال بدينه، وعدد السَّاقطين في جُبِّ الرذائل يستحثه للبحث عن سُبل السَّلامة

وطوق النجاة وطرق الخلاص، فنجـاة النَّاس جميعًا لن تنفعه إذا هلك، وسـعادتهم كلّهم لن ترضيه إذا شقي، وغناهم قاطبة لن يكفيه إذا افتقر..

«عن جعفر قال: دخلنا على أبي التياح نعوده، فقال: والله إنه لينبغي للرجل المسـلم أن يزيده ما يرى في الناس من التهاون بأمر الله أن يزيده ذلك جِداً واجتهاداً. ثم بكى!»[1]

فنفسَـك.. نفسَـك، ميدانك الأوّل، ومضمارك الأرحب، وحقلك الأخصـب، ومجالك الأحقُّ باهتمامـك واغتمامك، وعنايتك ورعايتك، فإذا أذنبت فتُب، وإذا عصيت فاستغفر، وإذا أسأت فأحسن، وإذا سـقطتَّ فقم، وإذا فرَّطت فعوِّض، حتى يكون الشيطان هو الأحقرَ الأخسرَ، وأنفه في الخزي راغم..

ولباب الفكرة: ثمـرة الغد هي: حُلـم الأمس، وزرع اليوم..

---

(١) كتـاب المحتضرين لابـن أبي الدنيـا (٣٠٨) وحلية الأوليـاء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم الأصبهاني (٣/ ٨٣).

رتِّب همومك

محاسبة النَّفس على تفريطها وتخليطها من أعظم موجبات فلاحها ونجاحها. ومراجعة إرشيف الحياة الماضية وسِجلَّات الأيام السَّابقة من أهم طرائق معرفة بواعث الحزن ومُسبِّبات القلق والأرق، ونظرة منك لما ذهب من حياتك تجعلك تتساءل في دهشة بالغة؛ كيف قضيت حياتي في هموم سخيفة وغموم تافهة واهتمامات ساذجة كانت ـ بالنسبة لي ـ من عظائم الأمور ومهمَّات القضايا وجلائل المسائل؟!

لماذا نفخت في همومي التي أحرقت راحتي وأفسدت فرحتي، وكان قلبي يغلي منها كالمرِجَل وصدري يمور كالقدر فوق الأثافي ونفسي تفور بسببها وكأنَّها على صفيح ساخن، وإنما كانت في حقيقتها منتفشة كفقاعة الصابون متورمة كنفخة البالون؟!

ما الذي جعلنـــي أُضخِّم ما كان يزعجنـــي وأُفخِّم ما كان يقلقني ويكدِّر عليَّ يومي، وأُعظِّم ما كان يقظّ مضجعي ويُسهر عيني ويحرمني لذيذ الكرى؟!

وإنِّي لأرعى النَّجـم حتى كأنَّني
على كلِّ نجم في السَّماء رقيب[١]

ولماذا أمضيـــت وقتي وأتلفت أعصابي فـــي انتظار وقوع مخاوف موهومـــة ومصائـــب مُتوقَّعة كانت تدور في رأســـي كالإعصار وتعصف بنفســـي كدوار البحار، ولم أرَ منها شـــيئًا واقعًا في حياتـــي؟ ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

من يعوضني عن عمري المُهدر في انتظار ما لم يُقدَّر؟!

لقد كنت مســـحوقًا تحت ضغط التوقُّع الأسوأ والاحتمال الأوجـــع والترقُّب الأفجع لأغلب مجريـــات الحياة، وأدركت مؤخرًا أن تلك الأوهام لم تكن توازي قيد أنملة أو تساوي حبَّة خردلة، وكنت أراها في عيني كالجبال الشَّامخة، وتعاملت معها تعاملي مع الأسد الضَّاري والوحش المفترس، وهي - في أسوأ

(١) لابن الدمينة.

حالاتها ـ هينةٌ ليّنةٌ كقطٍّ أليف وحملٍ وديع، واكتشفت ـ أخيرًا ـ أنها زوبعة في فنجانٍ صغير، وسحابة صيف عابرة، ولكن ـ وللأسف! ـ بعد أن أخذت مني الغالي من صحّتي وعافيتي، وحرمتني الكثير من مباهج الحياة وموجبات السّعادة..

أيُّهذا الشّاكي وما بك داءٌ كن جميلًا ترَ الوجود جميلا

هو عبءٌ على الحياة ثقيلٌ من يظنُّ الحياةَ عبئًا ثقيلا

والذي نفسه بغير جمال لا يرى في الحياة شيئًا جميلا(1)

أين ما كان يقلقني ويفزعني ويزعجني ويخيفني؟! ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

ذهبَتْ كما يذهب الليل والنَّهار، وبقيتُ في خير وعافية لم يمسسني سوء، والكثير مما كنت أتوقع حصوله لم يقع أصلًا وإن حدث لم يدم طويلًا، وكأن شيئًا لم يكن ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

فهل من الحكمة أن يستمرَّ هذا النزيف المخيف في الصحَّة والمشاعر والأوقات إلى ما لا نهاية أو حتَّى وقوع النِّهاية؟!

---

(١) إيليا أبو ماضي.

واطرح همومك خلف ظهرك إنَّها
نبع التَّعاسة مهد أسقام الورى

لابدّ أن يكون لكل واحد منَّا في حياته سلَّة مهملات كبيرة يرمي فيها كلَّ تلك المشاعر السِّلبية والهموم المقلقة والمخاوف المزعجة التي تقتات على سعادته ومسرَّته، لأن كثيرًا منها سراب خادع، وخيال مريض، وظنون كاذبة، وحبائل شيطان رجيم، ووساوس نفس ضعيفة..

وبيت القصيد: **بيوت العنكبوت أوهن البيوت، وهي أقوى أسلحتها للوقيعة بفرائسها، وكذلك الهموم والغموم تنسج خيوطها حول فرائسها، فلا تكن من ضحاياها..**





لا تهمل نفسك

إنَّ لكل مرحلة من مراحـــل العمر جمالًا يليق بها، وكمالًا يناسبها، وهيئة توافقها، فليســت الوسامة مرتبطة بفترة الشباب والفتوَّة والنشــاط والقوَّة، وليس الجمال مقرونا بالقدِّ الميَّاس والشعر الأســود والخصر النَّحيل، ولا يمكن أن يكون الحُسنُ محصورًا في عمرٍ دون عمر. ومن الظلم الفادح أن تنفرد بالتَّأنُّقِ مرحلــة دون أخرى، بل للطفولة جمالٌ باهر، وحُســنٌ آســر، وجاذبية طاغية تذهب بعقل اللبيب أحيانًا وتدع الحليم حيرانًا، وكذلك لمرحلة الشــيخوخة والكهولة ما يناسبها من الجاذبية الحاضرة والملاحة الظَّاهرة، ولطالما رأت العين كبيرًا في سِنِّه طويلًا في عمره ساطع الوضاءة، ناصع النضارة، لامع النظافة، يســرق البصر ويأخذ بتلابيــب القلب، لحرصه على نفســه، واهتمامــه بهندامه، وعنايتــه برائحته، وحفاوته بحســن هيئته وجمال صورتــه، لم تزده تجاعيــد الوجه إلا هيبــة وجلالًا،

وبياض الشـيب إلا بهجة وجمالًا، وقُرب الخطوة إلا رسـوًّا وكمالًا، ودقَّة البدن إلا رقَّة وبهاء ورونقًا ورِواء...

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢].

فلا ترض لنفسك بدنيء الاهتمام، ورديء اللباس، وسيء الثياب، وبالي الفراش، وقديم الهندام، وسقط الطعام، بل متِّعها متاعًا حسـنًا بما أباحه الله لها من متـاع الدنيا الحلال في غير إسراف وتبذير، بدون كبر واختيال، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلوا واشرَبوا وتَصدَّقوا والبَسوا ما لم يخالِطْهُ إسرافٌ أو مَخيلَةٌ»[1].

واحتشـم عمَّا لا يليق بك من بهرج اللباس وزخرف الثياب المزري بصاحبه المخزي لمن يلبسـه، وما سـواه مما أباحه الله تعالى فوسِّع على نفسك بما يزينك ولا يشينك، ورفِّه بدنك بما يبديه في أحسـن حالاته وأجمل هيئاته، وحدِّث بنعمة الله قولًا وفعلًا، ولا تبخل على نفسك بما يسـعدها، وتُزري بها بين من

---

(١) رواه النسائي (٢٥٥٩) وهو في صحيح ابن ماجه (٢٩٢٠).

يحبُّ كسرها وقهرها، وتزوي عنها ما يزيد في جمالها وكمالها، فأنت أحقُّ الخلــق بمالك، وأولى النَّــاس باهتمامك، وأوَّل من يجب أن ترعــاه وتُعْنَى بــه وتتعب من أجلــه، فبدنك كالفرس الأصيلة تعتليها روحك، وتسـكنها نفسـك، فأطـب مطعمها، وأرحب مخدعها، وأرغد عيشها، واحتفِ بمطالبها، وأنزلها منازل الكرامة، وعاملها معاملة الملوك إذا أقبلت والعبيد إذا أدبرت، ثم ارقب عدْوَها البهيج في ميدان الطاعة والعمل الصالح..

عن جابر بن عبد الله رضي عنهما، قال: أتانا رسول الله ﷺ فرأى رجلًا شـعثًا قد تفرَّقَ شـعره، فقال: «**أما كانَ يجدُ هذا ما يُسكِنُ به شعرُهُ**»؟!

ورأى رجلًا آخر وعليه ثيابٌ وسـخةٌ، فقال: «**ما كان هذا يجدُ ماءً يغسلُ به ثوبَهُ**».؟![1]

وعنه رضي الله عنهما، قال: أُتيَ بأبي قُحافةَ يومَ فتح مكةَ ورأسُهُ ولحيتُهُ كالثُّغَامَةِ بياضًا، فقال رسول الله ﷺ: «**غيِّروا هذا بشيءٍ**»[2].

---

(١) رواه أبو داود في سننه كتاب اللباس (٤٠٦٢) والنسائي في سننه (٩٣١٢) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٩٣).

(٢) رواه مسلم (٢١٠١) والثغامة؛ نبات شديد البياض، وثمره يشبه الشيب.

فكن جميلًا في مظهرك، مليحًا في مبسمك، أنيقًا في ملبسك، لبقًا في حديثك، عبقًا في رائحتك، رائقًا في صلتك، أنيسًا في مجلسك، تُحبُّك القلوب، وتألفك الأفئدة، وتحنُّ لك الأرواح، وتأنس بك النُّفوس، وتنشرح بمقدمك الصُّدور..

وتمام الكلام: **أنت أولى النَّاس بمالك، فلا تكن كشجرة القرع، تُنبت في أرض وتُثمر في أخرى..**





الخلف السيء

السَّــلامة من الإثم والجرم غنيمة لا يعدلها شيء، والنَّجاة من التبعات لا يقوم مقامها غيرها مــن النِّعم، وخصوصًا حين الخروج من الدنيا بلا جناية على أحد أو إضرار بالغير..

أثنى الناس على الفاروق عمر بن الخطاب عند موته، فقال: رَاغِبٌ رَاهِبٌ، ودِدتُ أنِّي نجوتُ منها كَفَافًا، لا لي ولَا عَلَيَّ[١].

وقال سفيان الثوري: رأيت شيخاً في مسجد الكوفة، يقول: أنا في هذا المسجد منذ ثلاثين سنة أنتظر الموت أن ينزل بي، ولو أتاني ما أمرته بشيء، ولا نهيته عن شيء، ولا لي على أحدٍ شيء، ولا لأحد عليَّ شيء[٢].

ألا ما أجمل المغنم، وما أقبح المغرم!

---

(١) صحيح البخاري (٧٢١٨) وصحيح مسلم (١٨٢٣).

(٢) كتاب قصر الأمل لابن أبي الدنيا (ص: ٧٩).

كم من أناس يعتمدون سياسة الأرض المحروقة بعد رحيلهم، وزرع الألغام النَّاسفة في مساحات غيرهم قبل مغادرتهم، وترك الأسلاك الشَّائكة الموجبة للأذى في حياة من بعدهم، فلبئسما صنعوا، ويا قبح ما فعلوا!

فلا تحرث بذور الفتنة في قلوب أحبابك، وتضرم نار العداوة بينهم بعد وفاتك، وتُخلِّف خلف ظهرك أسباب الشِّقاق والفراق، ودواعي الخصام والخلاف، وموجبات النِّزاع والصِّراع، وبواعث الفواجع والمواجع، بالجور في الوصيَّة، وعدم العدل في العطيَّة، وحرمان بعضهم من الإرث الشرعي ببعض الحيل القانونية كالبيع الصوري والهبات الجائرة في الحياة للمناكفة وتصفية الحسابات، وتطليق بعض الزوجات أو إنكار الزواج بهنَّ لغرض الإضرار والحرمان من الميراث، والميل ـ كلَّ الميل ـ لبعض الورثة على حساب البعض الآخر مما يبعث الإحن والمحن والفتن بينهم، ويغرس بذور الحسد والحقد في صدورهم، ويورث الكره والبغضاء في قلوبهم، ويؤدي إلى مصيبة القطيعة للرَّحم، وسوءة التَّهاجر والتَّدابر، وجريمة التَّناحر والتَّشاجر..

أزعم أنك لست في حاجة لذنوب جديدة تلحق بك في قبرك، وتأتي بها في صحائفك يوم بعثك ونشرك، وقد تكون سببًا في عقابك وموجبًا لعذابك وباعثًا لسوء حسابك في يوم القيامة، فمن ذا الذي يستحقُّ أن تُعرِّض نفسك لسخط الله وعقوبته من أجله؟! ومن هذا الجدير بأن تهدم آخرتك من أجل أن تبني دنياه؟! ومن الذي يستأهل أن تخسر ذاتك لتكسب رضاه؟!

إنَّك لن تُحاسب على عملك الذي قدمته في حياتك وحسب، وإنما ستُسأل كذلك عن عملك الذي أخَّرته بعد وفاتك ﴿ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ [القيامة: ١٣].

معنى ذلك: بما قدم من عمل خير، أو شر أمامه، مما عمله في الدنيا قبل مماته، وما أخر بعد مماته من سيئة وحسنة، أو سيئة يعمل بها من بعده.»[(١)]

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس: ١٢].

لا أعتقد أن أحدًا من الخلق أظلم لنفسه ممن ترك بعد رحيله سيئاتٍ جارية وخطايا مستمرَّة وذنوبًا دائمة ومعاصي متوالية

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٥٧٧).

لا تنقطع بمرور السنين، ولا تنتهي بكرِّ الجديدين، تأتيه في قبره ـ أضعف ما يكون ـ ولا قدرة لـه في إيقافها والتخلُّص منها، ولا طاقة له بتحمُّل عاقبتها وعقوبتها ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [العنكبوت: ١٣].

وكيف لا تكون ثقيلة وهي متواصلة وتتضاعف كل يوم؟!

فيا موقدًا نارًا لغيرك ضوؤُها وحرُّ لظاها بين جنبيك يُضرَمُ[(١)]

فلا تغامر بمستقبلك الحقيقي في الآخرة من أجل دعوى ضمان المستقبل الدنيوي لأحدٍ من الخلق، فرُبَّما يكون أوَّل خُصومك يوم القيامة، وقد يكون ما ظلمت نفسك به لتحوزه له دون غيره هو سبب بلائه وعنائه ولأوائه في الدنيا، وسبب عقابك وعذابك في الآخرة..

قال سُحنون: أشقى الناس من باع آخرته بدنياه، وأشقى منه من باع آخرته بدنيا غيره[(٢)].

عن ابن أبي أويس قال: سمعتُ مالك بن أنس يقول: قال ربيعة الرأي: يا مالك من السِّفلة؟

---

(١) للكميت بن زيد.

(٢) بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية (٣/ ٧٩٣).

قال: قلت: من أكل بدينه. قال: فمن سفلة السَّفلة؟ قال: من أصلح دنيا غيره بفساد دينه[١].

ويروى عن الإمام أنَّه قال لابن وهب: أخسر النَّاس من باع آخرته بدنياه، وأخسر منه من باع آخرته بدنيا غيره[٢].

عجبت لمبتاع الضلالــة بالهدى
وللمشــتري دنياه بالدين أعجبُ
وأعجب من هذين مــن باع دينه
بدنيا سواه فهو من ذين أخيبُ[٣]

خاب من بضاعته الخيانة!

وجامع المعنى: **هنيئًا لمن مات وماتت ذنوبُه معه!**



(١) الجليس الصالح والأنيس الناصح للمعافى بن زكريا (١/ ٢٠٦).
(٢) تدريب المدارك وتقريب المسالك لأبي الفضل القاضي عياض بن موسى اليحصبي (٢/ ٦٠).
(٣) ذم الرياء لأبي محمد الحسن بن إسماعيل بن محمد الضراب (ص: ٢٣٣).

الخاتمة

وها هـي ذي صفحات هـذا الكتاب تُطـوى كما طُويت صفحات العمر، وتنتهي حروفه كما انتهت أحداث الماضي من حياتنا وكأنَّها لم تكن شيئًا مذكورًا، فإن لكلٍّ بداية نهاية، ولكلِّ مقدِّمة ختام، ولكلِّ أجل كتابًا، ولكلِّ أوَّل آخرًا..

أيـا غافر الذنب العظيم وسـاتره
ويامن لـه ذلَّت رقـاب الجبابرة
فعلـت بنا مـن أوَّل الأمـر كلِّه
جميلًا فأتبـع أوّل الأمر آخره[١]

وددت في الخاتمة أن أقول لكلِّ مهموم: لا شـيء يسـتحق همومك، فالدُّنيا كُلُّها لا تُسـاوي جناح بعوضـة، وأن أهتف في مسمع كلِّ حزين: ما الداعي لهذه الدموع؟، فلا شيء يساوي كلَّ

(١) وجدت مكتوبة بخط يد الشاعر الموريتاني محمد اليماني عند رأسه بعد موته رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

هذه اللوعة والأسف، وأن أقذف في قلب كلِّ خائف: لن يقع في كون الله إلا ما قدَّره الله تعالى، وأقصى ما يفعله كلُّ عدوٍّ بك؛ أن ينفِّذ قدر الله فيك ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]،. وأن أخاطب كلَّ حيران: كلُّ الخطوات في كلِّ الدروب تائهة إلا طريقًا يوصلك لمن خلقك وإليه مرجعك ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النور: ٤٦]، وأن أناجي كلَّ مكسور: لا تبحث عن الجبر إلا في التذلُّل لمن بيده مقاليد أمرك ورقاب خصومك ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢]،. وأن أسارر كلَّ مشتاق: قلوب العباد بين أصابعه ونواصيهم في قبضته ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٩]،. فاجعل الهمَّ همًّا واحدًا، وهو؛ البحث عن مراضي الله في كلِّ شأنٍ تكون فيه، وبأيِّ عمر تكون به، ليكفيك بفضله شرَّ كلِّ الهموم، ولتهنأ بحياة الرِّضا والسَّعادة في كلِّ حال..

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن جَعلَ الْهمومَ همًّا واحدًا همَّ المعادِ كَفاهُ اللهُ همَّ دُنياهُ ومَن تشعَّبت بِهِ الْهمومُ في أحوالِ الدُّنيا لم يُبالِ اللهُ في أيِّ أوديتِهِ هلَكَ»[1].

---

(١) رواه ابن ماجة (٢٥٧) والبزار (١٦٣٨) والعقيلي في الضعفاء الكبير (٣٠٩/٤) وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة (٣٣٣٠).

المُتتبِّع لحياة كلٍّ واحد فينا يجد في مسيرته نجاحات باهرة ومنجـزات ظاهرة، وقد حصَّـل الكثير من الغايـات المرجوَّة، وحقَّق العديد من الانتصارات العظيمة، وفي تاريخه ما يفخر به ويفرح بذكره ويبتهج بتذكُّره، وفي المقابل ما منَّا من أحد إلا وله في حياته ثغرات وعثرات، واعترضت طريقه الكثير من العقبات التي لم يستطع أن يتجاوزها، والعديد من الإخفاقات التي وقع فيها، وهكذا تمضي الحياة ما بين فوز وخسارة، ونجاح وفشل، وعلو ودنو، وفرح وترح، وبسمة ودمعة، وكلُّ تلك المراحل في حياتنا مطايـا تحملنا للـدَّار الآخـرة ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

ولو كشـف الله عنا حجاب القـدر لما اختـار أحدنا إلا ما اختاره الله تعالى له في كلِّ تفاصيل حياته، فالله تعالى الذي يدبِّر الأكوان وما فيها وعليها، ويسـخِّر اللَّيـل والنَّهار، ويقدِّر ما يكون فيهما من خير وشـرٍّ ونفع وضُرٍّ هو من علم بضعفنا فرحمنـا، ورأى عجزنا فأيَّدنـا، وأحاط بـكلِّ تفاصيل حياتنا، فأفاض علينا من فيوض رحمته وعموم معونته ما ستر به عيوبنا، وفرَّج كروبنا، وسـهَّل دروبنا وحقَّـق لنا آمالنـا، فله الفضل المحـض والمِنَّة المطلقة فـي كلِّ نجاح حقَّقنـاه، وبأي خير

حصَّلناه، ومع كلِّ خطوة خطوناها، ونعمة أدركناها، ولم يبق لنا إلا أن نشكره على فضله وعطائه، ونستغفره من تقصيرنا في حقِّه، وتفريطها في طاعته، ونعتذر إليه من تقحُّمِنا لحدوده، ومخالفتنا لأمره، وقد عوَّدَنا فضلَه، وربَّانا بنعمه، وجاد علينا بما نعجز عن عدِّه وحدِّه وذكره وشكره، وما زلنا ـ وسنظل ـ نرجو تمام نعمته علينا، ونطمع في كمال فضله ومِنَّته لدينا، فلا غنى بنا عن ربِّنا وبركته وجوده طرفة عين..

وعزاؤنا حين نفارق الدنيا ومن علينا أننا نمضي إلى الله تعالى لنقف بين يديه، وهل رأينا الخير إلا منه؟ وهل جاءنا الإحسان إلا من لدنه، وهل نطمع إلا في فضله؟ وهل نرجو إلا جوده؟ وهل نأمل إلا في كرمه وحلمه ورحمته ورأفته ولطفه؟ وهو أرحم بنا مِنَّا، وأرفق بنا من والدينا، وأرأف بنا من كلِّ غال لدينا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩].، وزادنا الذي نُعوِّل عليه ونستجلب به لطفه ورحمته ونستوهب به رضوانه ومغفرته؛ أننا نعبده، ولا نعبد سواه، ونوحِّده فلا نُشرك به أحدًا، وندعوه فلا تنصرف قلوبنا لغيره أبدًا، ونلجأ إليه ونعتمد عليه، ولن نجد من دونه ملتحدًا، وهو حسبنا وكافينا، وكفى بالله وكيلًا!

هذا ما جاد به الفؤاد، وسطَّره البنان، ونطق به اللسان، وفاض به الوجدان من النَّصيحة لمن بلغوا هذه الفترة الزَّمنية من أعمارهم والنَّصيحة بهم، فإن أصبت فيها خيرًا ووافقت بها حقًّا فهو من الله تعالى الهادي لكلٍّ خير، وأشكره وأحمده على فضله، وما كان فيها من خطأ وزلل ونسيان، فمن نفسي والشَّيطان، وأستغفر الله منه، وإلى الله تصير الأمور، وصلى الله على سيدنا محمد، والحمد لله رب العالمين،،،،

وكتبه:



غفر الله له وتجاوز عنه

الفهرس

